المجلة العربية للتيار الماركسي الأممي

الحرية والشيوعية

مجلة فصلية

العدد 11

العدد الحادي عشر

مارس/آذار 2023 ❋ 2 دولار ❋ السعر التضامني 5 دولار ❋ https://www.marxy.com

الماركسية والعلم

تلسكوب جيمس ويب: عين على كون لانهائي في الزمان والمكان ص:12

أنظر أيضا: الانقلابات والنضال الجماهيري في أمريكا اللاتينية – ص: 06

مجلة "New Scientist" ضد الواقع – ص: 19

دون كيشوت، وإسبانيا في عصر سرفانتس – ص: 26

المجلة العربية للتيار الماركسي الأممي
الحرية والشيوعية

الإفتتاحية:

الصفحة: 5

تلسكوب جيمس ويب: عين على كون لانهائي في الزمان والمكان

يشرح الرفيقان **ديفيد غارسيا كولين وفينسنت أنجيرير** أزمة النظرية السائدة في علم الكونيات، نظرية الانفجار العظيم، والتي زادتها الاكتشافات تفاقما، والورطة التي وجد فيها أنصارها أنفسهم بسبب تشبثهم بها رغم كل الأدلة التي تثبت تهافتها. كما يوضح أن المادية الديالكتيكية خرجت مجددا منتصرة وتأكدت مبادئها الأساسية عن أن المادة لا تخلق ولا تفنى وأن الكون لم يظهر لا منذ ستة آلاف سنة كما تقول الأديان، ولا قبل 13 مليار سنة كما تقول نظرية الانفجار العظيم، بل هو كون سرمدي بلا "بداية" ولا "نهاية"...

الصفحة: 12

دون كيشوت، وإسبانيا في عصر سرفانتس

يقوم **آلان وودز** في هذا المقال، الذي كتبه بمناسبة الذكرى 400 لنشر أول طبعة لرواية "دون كيشوت"، بتحليل في منتهى العمق والموسوعية للرواية بربطها بسياقها التاريخي والأدبي واستخلص التشابهات التي توجد بين عصر سيرفانتيس وعصرنا، مما يجعل من قراءته مسألة ضرورية بما في ذلك لفهم الرواية نفسها، شكلا ومضمونا، ناهيك عن فهم العصر الذي كتبت فيه...

الصفحة: 26

الانقلابات والنضال الجماهيري في أمريكا اللاتينية

يحلل الرفيق **محمد حسام** في هذا المقال ردود فعل الطبقات السائدة المذعورة، في أمريكا اللاتينية، أمام صعود أحزاب اليسار إلى السلطة، ليس لخوفها من هؤلاء القادة الإصلاحيين، بل لكونه تعبيرا عن رغبة الجماهير في إيجاد حل لمشاكلها الملحة من خلال انتخاب أحزاب ترى فيها معبرا عن همومها. ولكونه يحرك قوى اجتماعية لا يمكن لهم، ولا لعملائهم الإصلاحيين، التحكم فيها بعد أن تنهض لأخذ مصيرها بأيديها. كما يفضح شكلية وخداع الديمقراطية البرجوازية التي لا تكون صالحة، من وجهة نظر الرأسماليين، إلا عندما لا تهدد نظامهم وتساعدهم على تأبيد سيطرتهم على السلطة والثروة.

الصفحة: 6

مجلة "New Scientist" ضد الواقع

مجلة نيو ساينتس، التي تعتبر من أبرز المجلات العلمية، التي تحاول تبسيط العلوم لجعلها في متناول الناس غير المتخصصين. ويناقش الرفيق **جو أتارد**، في هذا المقال، المستنقع المثالي الذي وصلت إليه بحيث صارت تدافع صراحة عن أفكار غير علمية بالمطلق، بما في ذلك نفي وجود الواقع الموضوعي!!

الصفحة: 19

الحرية والشيوعية صحيفة تصدر عن التيار الماركسي الأممي، صدر العدد الأول عام 2012 وتوقفت عن الصدور عام 2014 ، ثم استأنفت صدورها من جديد منذ عام 2020. لتحميل الأعداد السابقة اضغط على الصور.

للتواصل مع التيار الماركسي الأممي في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، يمكنكم مراسلتنا على العناوين الآتية:

البريد الإلكتروني لموقع ماركسي:

contact@marxy.com

بريد موقع الدفاع عن الماركسية:

contact@marxist.com

مجلة الشيوعية والحرية:

communismliberty@marxy.com

زوروا مواقعنا:

www.marxy.com

www.marxist.com/arabic.htm

وصفحاتنا على مواقع التواصل الاجتماعي:

فايسبوك:

https://www.facebook.com/marxycom

تويتر:

https://twitter.com/marxycom

انستغرام:

https://www.instagram.com/marxy.imt

افتتاحية العدد

الرفيقات الرفاق نضع بين أيديكم العدد الحادي عشر (11) من مجلتكم الشيوعية والحرية، والذي يتضمن مجموعة من المقالات الهامة التي تناقش قضايا تاريخية وعلمية ذات أهمية بالغة:

مقال: "دون كيشوت، وإسبانيا في عصر سرفانتس"، بقلم آلان وودز، والذي يناقش فيه رائعة سيرفانتيس: "دونكيشوت دي لامانشا"، التي هي رواية احتلت عن جدارة مكانتها ضمن أعظم الآثار الأدبية العالمية على الإطلاق، لأنها تمكنت بالفعل من أن تدمج في قالب أدبي رفيع تحليلا عميقا للأوضاع التاريخية للمجتمع الاسباني، خلال القرن الخامس عشر، الذي كان مجتمعا يشهد مخاضا عسيرا لنظام اقتصادي اجتماعي سياسي يريد أن يولد (النظام الرأسمالي) في مواجهة نظام اقتصادي اجتماعي سياسي قديم محتضر لكنه لا يريد أن يموت (النظام الإقطاعي)، وكذلك تحليلا ونقدا بارعا للسيكولوجيا والأخلاق والدين والعلاقات الاجتماعية...

قام آلان في ذلك المقال بتحليل في منتهى العمق والموسوعية للرواية بربطها بسياقها التاريخي والأدبي واستخلص التشابهات التي توجد بين عصر سيرفانتيس (الذي كان عصر الانتقال من الإقطاع إلى الرأسمالية) وعصرنا (عصر الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية)، مما يجعل من قراءته مسألة ضرورية بما في ذلك لفهم الرواية نفسها، شكلا ومضمونا، ناهيك عن فهم العصر الذي كتبت فيه...

يتضمن العدد كذلك مقالا للرفيقين: ديفيد غارسيا كولين وفينسنت أنجيرير عن تلسكوب جيمس ويب والذي يناقش فيه تلك الاكتشافات الباهرة التي أعلنت عنها وكالة ناسا والمبنية على الصور التي أرسلها التلسكوب لأعماق الكون.

يشرح الرفيقان أزمة النظرية السائدة في علم الكونيات، نظرية الانفجار العظيم، والتي زادتها الاكتشافات تفاقما، والورطة التي وجد فيها أنصارها أنفسهم بسبب تشبثهم بها رغم كل الأدلة التي تثبت تهافتها. كما يوضح أن المادية الديالكتيكية خرجت مجددا منتصرة وتأكدت مبادئها الأساسية عن أن المادة لا تخلق ولا تفنى وأن الكون لم يظهر لا منذ ستة آلاف سنة كما تقول الأديان، ولا قبل 13 مليار سنة كما تقول نظرية الانفجار العظيم، بل هو كون سرمدي بلا "بداية" ولا "نهاية"...

كما يتضمن العدد أيضا مقالا علميا آخرا للرفيق جو أتارد حول مجلة نيو ساينتس، التي تعتبر من أبرز المجلات العلمية، التي تحاول تبسيط العلوم لجعلها في متناول الناس غير المتخصصين. فيناقش المستنقع المثالي الذي وصلت إليه بحيث صارت تدافع صراحة عن أفكار غير علمية بالمطلق، بما في ذلك نفي وجود الواقع الموضوعي!!

يربط الرفيق جو أتارد في مقاله هذا أزمة المجلة بأزمة الفكر البرجوازي عموما، حيث أن انحطاط النظام الرأسمالي ليس انحطاطا اقتصاديا وسياسيا فقط، بل هو انحطاط عام يمس الأخلاق والآداب والفن والفلسفة... كما يشرح كيف أن توهم بعض أعظم العقول في مجال الفيزياء وغيرها من العلوم، أنهم لا يحتاجون إلى فلسفة متناسقة يتملكونها بشكل واع وبدراسة عميقة، يجعلهم ضحايا لأسوأ أشكال الفلسفات التي يتشربونها من مختلف الجهات (الأسرة والمدرسة والمؤسسة الدينية والإعلام، إلخ) فيسقطون في أبشع الأخطاء عندما يحاولون تقديم تأويل للاكتشافات الباهرة التي يحققونها في مجال الفيزياء، وغيره من العلوم.

وتجدون في هذا العدد كذلك، مقالا للرفيق محمد حسام عن الانقلابات في أمريكا اللاتينية، بعنوان "الانقلابات والنضال الجماهيري في أمريكا اللاتينية" والذي يحلل فيه ردود فعل الطبقات السائدة المذعورة، في ذلك الجزء من العالم، أمام صعود أحزاب اليسار إلى السلطة، ليس لخوفها من هؤلاء القادة الإصلاحيين، بل لكونه تعبيرا عن رغبة الجماهير في إيجاد حل لمشاكلها الملحة من خلال انتخاب أحزاب ترى فيها معبرا عن همومها. ولكونه يحرك قوى اجتماعية لا يمكن لهم، ولا لعملائهم الإصلاحيين، التحكم فيها بعد أن تنهض لأخذ مصيرها بأيديها.

كما يفضح شكلية وخداع الديمقراطية البرجوازية التي لا تكون صالحة، من وجهة نظر الرأسماليين، إلا عندما لا تهدد نظامهم وتساعدهم على تأبيد سيطرتهم على السلطة والثروة، لكنهم مستعدون دائما للتخلص منها دون أي تردد وبأشد الطرق وحشية، بما في ذلك الانقلابات الدموية وتقتيل المتظاهرين العزل، عندما تهددهم بخروج الأمور عن سيطرتهم.

يقدم هذا العدد الدليل، مرة أخرى، على خطأ ذلك الرأي القائل بأن الماركسية مجرد نظرية اقتصادوية همها تحليل الأجور ونقاش الخبز وظروف العمل. إنها على العكس من ذلك سلاح في يد الطبقة العاملة لتحليل الواقع في كل أبعاده الاقتصادية والسياسية والتاريخية والفلسفية لتتمكن من فهمه لتتمكن من تغييره، بينما الفلسفة البرجوازية، في عصر انحطاطها، هي كما قال عنها جوزيف ديتزغين ليست علما، بل هي مجرد أداة للتصدي للماركسية، لذلك لا بد للماركسيين أن تكون لديهم فلسفتهم الخاصة، والتي هي أهم الأسلحة في ترسانتنا الثورية.

أيتها الرفيقات أيها الرفاق، كل من ينصحكم بالابتعاد عن التكوين الذاتي العميق وامتلاك النظرية الثورية، تعاملوا معه بالاحتقار الذي يستحقه، لأنه يريد في الواقع إبعادكم عن العمل الثوري، لأنه لا حركة ثورية دون نظرية ثورية. لذا احرصوا على الدراسة الجدية المتأنية للفكر الماركسي.

الانقلابات والنضال الجماهيري في أمريكا اللاتينية

هذا المقال في الأصل عرض قدمه الرفيق محمد حسام، عضو هيئة تحرير موقع marxy.com ومجلة "الحرية والشيوعية"، في "نادي إلى اليسار" على منصة "الكلوب هاوس"، خلال شهر يناير/كانون الثاني من هذه السنة.

أمريكا اللاتينية على صفيح ساخن، هي واحدة من أكثر الأماكن في العالم التي تتجلى فيها أزمة النظام الرأسمالي وأزمة اليسار الإصلاحي في آن واحد. تعيش أمريكا اللاتينية لعقود طويلة في تقلبات حادة، أزمة متفاقمة وصراعًا طبقيًا يكاد لا يهدأ.

ما نشهده حاليًا هناك هو امتداد للحركة الجماهيرية التي اندلعت في أواخر 2019 في العديد من البلدان، الإكوادور وتشيلي وكولومبيا، والتي بدورها كانت جزءا من موجة مد للحركة الجماهيرية على مستوى العالم، في السودان ولبنان والجزائر والعراق وصولاً إلى هونج كونج. في كل تلك الحركات شهدنا نفس السيرورة: حركة جماهيرية قوية وعفوية، بحضور شبابي واضح ومكثف، هؤلاء الشباب الذين شبوا في أعقاب أزمة 2008، الذين كل ما توفره لهم الرأسمالية هو وعد بمستقبل مأزوم، وعي طبقي متقدم، الجماهير تسائل كل النظام، لكن أيضًا شهدنا تراخي وتخاذل القيادة، أو من يفترض فيهم أن يكونوا القيادة، قمع وحشي، ووصول الحركات الجماهيرية لطريق مسدود.

نحن هنا لا نتحدث عن مجرد حركات مطلبية معارضة بالمعنى التقليدي هنا أو هناك، إنما نتحدث عن سيرورة ثورية واحدة، غمرت الجماهير الشوارع مثل النهر الهادر، نتحدث عن حركات كانت تواجه ما هو أعمق وأكثر من الحكومات القائمة، كانت تواجه النظام بأكمله، صوبت هجومها نحو النظام بأكمله، والهتاف اللبناني الشهير "كلن يعني كلن" هو تعبير واضح عن مستوى الوعي الطبقي لتلك الموجة، تمامًا كما الثورة السودانية ودرجة تنظمها. باختصار نحن نتحدث عن موجة ثورية اجتاحت العالم من أقصى الغرب لأقصى الشرق في شهور قليلة تحمل كثير من السمات الثورية، لم تقطعها سوى فراغ القيادة ثم الجائحة.

ورجوعًا لأمريكا اللاتينية، لفترة وجيزة، قبل تلك الحركات وبعدها، ساد تشاؤم في الجو بين اليساريين حول المد اليميني في أمريكا اللاتينية، مع تأزم الحكومات اليسارية المختلفة، في فنزويلا والبرازيل وحتى كوبا، وانتشر التشاؤم مع انتصار جائير بولسونارو في البرازيل، الأزمة الطاحنة التي مرت بها فنزويلا ومحاولة الانقلاب بدفع الولايات المتحدة الأميركية لإسقاط حكومة مادورو هناك، لدرجة أنه بدأ الصراخ حول المد اليميني في القارة والفاشية في البرازيل.

طبعًا أصدقاؤنا اليساريون المثقفون جدًا يستعملون الفاشية كمسبة وليس مصطلحًا سياسيًا، لكن هذا شيءٌ آخر لسنا بصدده الآن، المهم أنه كان من الواضح لنا، في التيار الماركسي الأممي، أن انتخاب بولسونارو لم يكن دليلاً على مدّ "فاشي" أو حتى يميني في البرازيل، وإنما كان دليلاً على عمق الأزمة وحدية المشهد السياسي، نتاج

خيانة حزب العمال البرازيلي، بقيادة لولا دا سيلفا وديلما روسيف من بعده، للجماهير وتطلعاتها، وعقم الساحة السياسية، فجاء بولسونارو بمظهر الحل من خارج المؤسسة الرسمية ليلامس بخطابه الشعبوي المزاج الراديكالي للجماهير التي لم تعد تقبل الحلول المتذبذبة والخطاب الوسطي، تمامًا مثلما كان الوضع حينما انتُخب ترامب في الولايات المتحدة الأمريكية.

وبسرعة، بعد فوز اليسار في انتخابات عدة بلدان في أمريكا اللاتينية، البيرو وكولمبيا وأخيرًا البرازيل بعودة لولا دا سيلفا للحكم، انقلب المزاج اليساري عند أصدقائنا 180 درجة، وصوروا كما لو أنه لا رجعة لليمين بعد الآن فقد انتصر اليسار، وهذا لم يكن حقيقيًا، في النهاية إذا عجزت تلك الحكومات اليسارية عن حل المشاكل الملحة للجماهير وحشد الجماهير في مشروع ثوري لإسقاط الرأسمالية، فمزاج الجماهير يمكن أن ينقلب. يمتاز المزاج الجماهيري في أوقات الأزمات الطاحنة، مثل الأزمة الحالية، بكونه راديكالي وكثير التقلب، تبحث الجماهير في كل مكان عن بديل، ومع فساد الأحزاب القائمة وعقم الأحزاب العمالية التقليدية، يجربون كل الحلول، من اليمين لليسار، لكن للأسف، أو لأقولها بصراحة لحسن حظنا، أنه لا مكان للوسط في هذه المرحلة من التاريخ.

البيرو

كان انتخاب بيدرو كاستيلو بمثابة زلزال سياسي في البيرو، زلزال يعبر عن تغيير مهول في الصراع الطبقي والاستقطاب السياسي هناك. شنت الطبقة السائدة البيروفية حملة شرسة لهزيمة النقابي الذي يصف نفسه بأنه ماركسي ولينيني: بيدرو كاستيلو، بغض النظر عن أنه ليس كذلك من وجهة نظرنا، شنت حملة تحت شعارات مثل: "الشيوعية هي الفقر" لهزيمة القاعدة الشعبية المستند عليها بيدرو كاستيلو.

ما حدث كان بسبب الأزمة الرأسمالية التي تفاقمت مع الجائحة. عانت البيرو من أسوأ الانكماشات الاقتصادية في أمريكا اللاتينية بنسبة 11% عام 2020، وسجلت أسوأ نسبة من الوفيات الزائدة، وأسوأ معدل وفيات في أي مكان في العالم، وبينما تسابق السياسيون الأثرياء والبيروقراطية الحكومية لأخذ اللقاحات تركوا الجماهير لتموت.

هذا الانتصار كان تعبيرًا عن رغبة الجماهير في التغيير وتطلعها لبديل جذري، وهو ما كان يمثله بيدرو كاستيلو من وجهة نظرهم. تقدم بيدرو ببرنامج يلامس تطلعات الجماهير: إعادة التفاوض بشأن شروط العقود مع شركات التعدين متعددة الجنسيات (وإذا رفضت الشركات فسيتم تأميمها)، وعقد جمعية تأسيسية لتغيير دستور عام 1993 المكتوب خلال ديكتاتورية فوجيموري، بشعارات حماسية ألهبت الجماهير مثل: "لا مزيد من الفقراء في بلد غني".

بيدرو كاستيلو في حد ذاته كان يمثل الكثير بالنسبة للجماهير، معلم ريفي له جذور فلاحية، متحدٍ للبيروقراطية النقابية، من خارج المؤسسة الحاكمة، من يسارها بمعنى أصح ومناهض لها، هذا في ظل سئم الجماهير من كل الأحزاب الليبرالية القائمة.

فاز بيدرو كاستيلو في تلك الانتخابات بفارق ضئيل، وهذا نتيجة الاستقطاب السياسي والطبقي الحاد في البيرو. كان أمام بيدرو كاستيلو طريقين: إما أن يفي بوعوده للجماهير، وهذا معناه الاعتماد عليها لإسقاط الرأسمالية، وإما أن يتراجع تحت ضربات الرأسمالية في الداخل والخارج. كانت الجماهير على استعداد للمضي قدمًا إلى النهاية في الدفاع عن مشروع بيدرو كاستيلو، وهو ما لم يستغله كاستيلو.

ذُعرت الطبقة السائدة من فوز بيدرو كاستيلو وبدأت تعد العدة للتخلص منه منذ اليوم الأول، ظلت تنظر إليه كدخيل عليها، كانوا يرونه تهديدًا لسلطتهم وامتيازاتهم، لقد لجأت الطبقة السائدة

والإمبريالية الأمريكية من خلفها لكل الحيل لعرقلة بيدرو كاستيلو وإفشال مسعاه لتطبيق سياساته.

يعتبر برنامج كاستيلو، على الرغم من الإشارات إلى ماركس ولينين في كل وثائق حزبه، أحد برامج التنمية الرأسمالية الوطنية، وليس برنامجًا اشتراكيًا. كان يريد استخدام الثروة المعدنية للبلاد لصالح البرامج الاجتماعية (التعليم بشكل رئيسي) والعمل مع "رجال الأعمال الوطنيين المنتجين" من أجل "تطوير الاقتصاد". ونموذجه كان الإكوادور وبوليفيا على حد قوله، دون التعلم من إخفاقات الإكوادور وبوليفيا.

المشكلة هي أن الرأسماليين المسؤولين "المنتجين الوطنيين" لا وجود لهم، لا في البيرو ولا في أي مكان آخر، الرأسماليون يستثمرون ليس من أجل الوطن ولا التنمية وإنما من أجل الأرباح. إن الطبقة السائدة في البيرو، أصحاب البنوك، وملاك الأراضي، والرأسماليين، مرتبطون ارتباطًا وثيقًا بمصالح الشركات متعددة الجنسيات والإمبريالية، التي كان يود بيدرو كاستيلو بسذاجة أن يتفاوض معها.

واجه كاستيلو معضلة: إما أن يفي بوعوده للجماهير، وهو ما يعني أن يدفع لقطيعة مع النظام الرأسمالي، وإما أن يدخل في طريق المساومات البرلمانية -الذي تعارضه أغلبيته- مع الطبقة السائدة، ويفقد شعبيته بالتدريج تمهيدًا لسقوطه، وللأسف اختار الطريق الثاني.

موقفنا حينها، في التيار الماركسي الأممي، الذي يمكن الاطلاع عليه في موقعنا العربي والإنجليزي، هو أنه يجب دعم كل خطوة إلى الأمام يخطوها بيدرو كاستيلو، ونقد كل تذبذب وتراجع، مع الشرح للجماهير لأوجه قصور بيدرو كاستيلو ومشروعه الإصلاحي منذ البداية، وهو موقفنا تجاه كل الإصلاحيين اليساريين، وأنه يجب على الطبقة العاملة والجماهير أن لا تثق إلا في قواها الذاتية.

وأخيرًا، تم تقديم طلب عزل ثالث ضد الرئيس بيدرو كاستيلو وكان من المقرر مناقشته في 7 ديسمبر من قبل الكونجرس. ومع ذلك، في الساعة 11:45 صباحًا من نفس اليوم، وجه كاستيلو رسالة إلى الأمة يعلن فيها حل البرلمان، ردًا على الهجمات المتعددة والعقبات التي وضعها البرلمان ضد حكمه منذ البداية. لكن للأسف كانت هذه محاولة في الوقت الضائع.

لقد دعا قبلها بيدرو كاستيلو، نتيجة حالة المشاحنات والشلل السياسي، منظمة الدول الأمريكية قبل أسابيع قليلة إلى التدخل، أي أنه كان يدعو الإمبريالية الأمريكية، دون تعلم أي شيء من تاريخ تدخلها في أمريكا اللاتينية، الذي يهدف لتأكيد مصالحها ضد أي محاولة من قبل الجماهير لتحرير نفسها، بما في ذلك حتى المحاولات الإصلاحية الخجولة التي لم تشن أبدًا معركة حاسمة وجادة ضد الرأسمالية.

لكن جاءه رد مفاجئ بالنسبة له ومتوقع جدًا بالنسبة لنا، لقد نال ما طلبه، تدخلت منظمة الدول الأمريكية وأعلنت أن الرئيس بيدرو كاستيلو قد خرق النظام الدستوري. لذلك، أقرت منظمة الدول الأمريكية بإقالته وصدقت على الرئاسة الجديدة لدينا بولارت. وهذا بدلاً من أن يتوجه للجماهير ويدعوها للاحتشاد دفاعًا عنه وعن برنامجه، وهو ما كان سيلقى استجابة واسعة. باختصار هذا ما جنته يداه.

ردت الجماهير بقوة على هذا الانقلاب، اجتاحت الشوارع، مظاهرات وإغلاقات للشوارع واعتصامات وإضرابات عامة، ردت الطبقة السائدة بعنف همجي أدى لمقتل العشرات. وما زالت حتى الآن الساحة السياسية البيروفية شديدة الفوضى، السلطة الانقلابية شديدة الهشاشة، الطبقة السائدة بدأت في التصدع نتيجة صمود

الجماهير. يمكن هزيمة الانقلاب الأخير في البيرو، فقط إن اتحدت الطبقة العاملة تحت راية برنامج نضالي جريء وحازم، وهو ما يمكن إنتاجه استنادًا على الحركة المتنامية بين الجماهير. الجماهير تحتاج إلى قيادة ثورية وبرنامج اشتراكي جريء يبين لهم الطريق إلى الأمام. رفاقنا في البيرو يبذلون مجهودًا جبارًا ويبلون بلاءً حسنًا، لدينا مجموعة صغيرة لكنها نشطة للغاية ونحن واثقون من أنهم سوف يحققون نتائج رائعة. النضال الجماهيري مستمر والقمع أيضًا لكنه لا يجلب نفعًا للطبقة السائدة، وهذا أكثر ما يرعبها. علينا أن نراقب تطور الأوضاع هناك عن كثب.

البرازيل

شهدت الانتخابات البرازيلية الأخيرة استقطابًا حادًا للغاية، بولسونارو -مستندًا إلى الفئات الأكثر تخلفًا ومحافظة في البلاد- في مواجهة لولا دا سيلفا - مستندًا إلى الفئات الأكثر تقدمًا بقيادة الطبقة العاملة-. برغم أن حملة لولا دا سيلفا افتقرت إلى محتوى طبقي جذري، وقامت على تحالفات غير مبدئية مع البرجوازية البرازيلية، وهو ما ظهر في اختيار نائب الرئيس، جيراردو ألخمين، وهو سياسي برجوازي أصيل كما يقال. كل هذا استفاد منه بولسونارو، وهو ما ظهر في فوز لولا دا سيلفا بفارق ضئيل.

بدلاً من أن يبني حملته على القضايا الطبقية، تم جره للقضايا الثقافية المجردة، التي يتفوق فيها بولسونارو، وحاول لولا التفوق على بولسونارو بالميل أكثر نحو اليمين، ظنًا منه أن هذا في مصلحته، بينما كان من شأن حملة جريئة بمطالب اجتماعية ملموسة، وبخطاب طبقي كفاحي، أن تتجاوز الانقسامات الدينية والثقافية وتنسف شعبوية بولسونارو.

خاضت الطبقة العاملة نضالاً حازمًا ضد بولسونارو، الذي كان يمثل بالنسبة لها الهجوم على الأجور وظروف العمل ومستويات المعيشة، والتعامل الكارثي مع الجائحة، من أجل لولا دا سيلفا الذي يأملون أن يمثل عكس ذلك، رغم أن لولا وحزبه، وبشكل خاص ديلما روسيف، خسروا كثيرًا من رصيدهم أثناء تجربتهم في الحكم، ونستطيع أن نقول ونتوقع أنه لو كان هناك مرشح غير بولسونارو لكان خسر لولا دا سيلفا، ولو كان هناك مرشح آخر غير لولا دا سيلفا ومشروع سياسي عمالي وكفاحي لكان هزم بولسونارو بسهولة جدًا.

كان قد فقد شعبيته كُليًا بالفعل، تميزت فترة رئاسته بمظاهرات لا تنقطع، لشهور قبل الانتخابات كان يخرج الآلاف إلى الشوارع هاتفين ورافعين شعار: "*Fora Bolsonaro!*" ("بولسونارو ارحل!")، الذي كان رفاقنا في البرازيل، في منظمة اليسار الماركسي، أول من رفعه، لكن قيادات حزب العمال والنقابات العمالية كبحت الجماهير حينها، وحثتهم على "احترام التفويض الديموقراطي لبولسونارو" وانتظار الانتخابات المقبلة لطرده. وفي الوقت نفسه برروا تخاذلهم وميلهم نحو اليمين بإثارة المخاوف من كون بولسونارو "فاشيًا"!

في النهاية الانتخابات لا تحل المشاكل تلقائيًا، القنبلة الموقوتة الموجودة في أسس الوضع الحالي هي، بطبيعة الحال، الأزمة الاجتماعية الحادة التي تعيشها البرازيل والارتفاع الحاد للّامساواة: يعاني 33 مليون برازيلي من سوء التغذية، بينما زاد عدد أصحاب الملايين بشكل مستمر خلال السنوات الأخيرة.

يتولى لولا دا سيلفا السلطة حاليًا في وقت أعمق أزمة للنظام الرأسمالي، حيث لا يمكنه الاستفادة من ارتفاع أسعار المواد الخام مثل رئاسته الماضية، حيث لا يمكنه مسك العصا من المنتصف. إن استمرت حكومة لولا دا سيلفا، كما هو متوقع، في الالتزام بالنظام الرأسمالي، فسوف تصبح حكومة لشن المزيد من الهجمات على الطبقة العاملة.

كتب رفاقنا في البرازيل بعد الانتخابات:

«انتصار لولا هو الخطوة الأولى، لكن يتوجب الآن الاستعداد للنضال من أجل التغيير الحقيقي: التغيير الذي تتوقعه جماهير العمال والشباب الذين صوتوا لصالح لولا. لقد تم هزم بولسونارو في صناديق الاقتراع، لكن "البولسونارية" ما تزال حية وقوية، وسيتعين هزيمتها في المصانع وأماكن العمل، وفي أحياء الطبقة العاملة، باستخدام أساليب الإضرابات الجماهيرية والمظاهرات.»

وهو ما حدث في المحاولة الانقلابية اليمينية التي حدثت في بداية الشهر الحالي، ومن الواضح أنها لم تكن محاولة جدية أو مخططة، حيث إنها حتى لم تلق دعم شرائح معتبرة من الطبقة السائدة، وسارعت الإمبريالية الأمريكية بنفاق لإدانة تلك المحاولة، طبعًا لمصلحتها الخاصة ولعدم اضطراب الأوضاع أكثر، حيث إنها هي الداعم الرئيسي للانقلاب في البيرو. اقتحم مجموعة من أنصار بولسونارو المتعصبين الكونجرس والقصر الجمهوري والمحكمة العليا. وفي هذا السياق أنصح الجميع بقراءة البيان الصادر عن رفاقنا

هناك، تحت عنوان: "البرازيل: ضد اليمين المتآمر الانقلابي – من أجل تحرك موحد مستقل للطبقة العاملة!"، والذي نقرأ فيه:

«حكومة لولا – ألخمين، التي هي حكومة وحدة وطنية مع الطبقة الرأسمالية، لا تتوقف عن مد يدها إلى ممثلي اليمين وحتى اليمين المتطرف للانضمام إلى الحكومة. ووزير الدفاع، خوسيه موسيو، الذي من المفترض فيه أن يسهر على الدفاع عن الحكومة في مواجهة التخطيط للانقلاب، صنف معسكرات الخيام [التي أقامها أنصار بولسونارو] أمام الثكنات العسكرية، والتي كانت تدعو إلى التدخل العسكري، على أنها "تعبير عن الديمقراطية".»

ردت الجماهير بالنزول إلى الشوارع لإظهار معارضتها لتلك المحاولة الانقلابية الفاشلة، وهو ما يجب أن يستغله قادة المنظمات العمالية واليسارية ليس فقط من أجل التعبئة ضد اليمين، ولكن من أجل الاستقلال الطبقي للطبقة العاملة.

درس في الإصلاحية

خلال السنوات الماضية، في أمريكا اللاتينية بشكل خاص وفي العالم بشكل عام، تعلمنا درسًا مهمًا عن الإصلاحية: إنه يمكنك أن تكون في السلطة دون أن يعني هذا أن يكون لديك سلطة حقيقية. دون مصادرة المفاتيح الرئيسية للاقتصاد وتسييرها بشكل ديمقراطي لن يكون لأي انتخابات أو مؤسسة تمثيلية أي أهمية في حد ذاتها.

تستطيع الأحزاب اليسارية والعمالية الفوز بالانتخابات، حتى الرئاسية، في ظروف معينة، لكن دون أن تنزع القوة الاقتصادية للرأسماليين فإن فوزها لن يؤدي إلا لإحراقها وتبديد رصيدها وشرعيتها وشعبيتها بين الجماهير، خصوصًا في أوقات الأزمات الاقتصادية، ويمكن أن يمهد هذا الطريق لعودة اليمين، لأنه في النهاية الرأسماليين هم الذين يتحكمون في الحكومات وليس العكس، مهما بدا عكس ذلك ومهما أدعى وتصور الإصلاحيون المثاليون الذين يصوروا الصراع الطبقي والأزمة الاقتصادية على أنها أزمة قرارات وسمات شخصية، وليست أزمة مزروعة في أسس النظام الحالي. بالنسبة لنا نحن، الماركسيون، لا ننبذ الانتخابات البرجوازية التمثيلية من حيث المبدأ، ولكننا نراها مهمة بقدر ما تُظهر للجماهير حدود الديمقراطية التمثيلية في ظل النظام الرأسمالي، وبقدر ما تساعد على تعبئة وتنظيم ورفع وعي الجماهير، وبقدر ما تسمح لنا بالتعبير عن وجهات نظرنا.

للأسف نتيجة تعرض القوى الماركسية الحقيقية لتراجع كبير طيلة فترة تاريخية كاملة، نتيجة عوامل تاريخية عديدة، لم تكن جاهزة في وقت استيقاظ الجماهير في الفترة الماضية، ولنكن صريحين هذا الوضع مستمر حتى الآن، القوى والتيارات الإصلاحية، بشكل خاص اليسارية، هي من كانت جاهزة أكثر، لكنها الآن تخضع للاختبار القاسي في بلد تلو الآخر، وسقطت أغلبها بنفس سرعة صعودها، وكان لأغلبها طابعًا عرضيًا للغاية، مثلما شهدنا في السنوات القليلة الماضية. تعيش الإصلاحية فقط على تربة النمو والتعافي الاقتصادي، وهذا يظهر بوضوح في أزمة الرأسمالية الحالية، التي لا توفر مساحة وهامش مناورة للإصلاحيين، اليمينيين واليساريين على حد سواء.

إخفاق الإصلاحيين اليساريين، بغض النظر عن نواياهم ونزاهتهم الشخصية، له سبب واضح: إنه لا يوجد حل وسط بين مصالح الرأسماليين والطبقة العاملة، خصوصًا في أوقات الأزمات الاقتصادية. أي محاولة لإيجاد ذلك الحل الوسط وخدمة تلك المصالح الطبقية المتناقضة هي محاولة عبثية وسوف تؤدي إلى الهزيمة، وأحيانًا تؤدي إلى إثارة استياء المعسكرين، العمالي والرأسمالي. لو صح لنا أن نتعلم شيئًا عن الإصلاحيين: إنهم لا يتعلمون شيئًا من التاريخ، يقال إن الغباء أن تفعل نفس الشيء مرتين وتنتظر نتائج مختلفة، لكن نفس الشيء فعلوه عشرات المرات وليس مرتين فقط، لكنهم للأسف لا يتعلمون شيئًا.

خـاتـمـة

مـن الـضروري دراسـة الأحـداث في البـيرو والبرازيـل، وأحـداث الإكـوادور وتشـيلي وبوليفيـا التـي تتقاسـم كثـيرًا مـن التشـابهات مـع البـيرو، للتحـضر للأحـداث المسـتقبلية. مـا يحـدث الآن ومـا نحـن بصـدد مناقشـته الآن لا يخـص أمريـكا اللاتينيـة فقـط، بـل يخـص كل السـيرورة الثوريـة التـي بـدأت في العـالم كلـه، والتـي سـوف تتجـذر أكـثر، ومـا يحـدث هنـاك يمكـن أن ينتقـل بسـهولة هنـا. البـيرو والبرازيـل ليسـوا نمـاذج منعزلـة وإنمـا تعبـير عـن فـترة مـن اشـتداد الـصراع الطبقـي في أمريـكا اللاتينيـة والعـالم كلـه.

لـذا فـإن الأحـداث الحاليـة ليسـت نهايـة المطـاف، السـؤال ليـس مـا إذا كان سـيكون هنـاك اضطرابـات اجتماعيـة في الفـترة المقبلـة، لأن هـذا شيء حتمـي، ولكـن بالأحـرى كيـف يجـب أن يسـتعد الثوريـون لهـا. الـدروس الرئيسـية للأزمـة المسـتمرة في أمريـكا اللاتينيـة هـي، أولاً: الطبيعـة العميقـة لأزمـة النظـام وتشـوه سـمعة مؤسسـات الديمقراطيـة البرجوازيـة، ثانيًـا: القـدرة الهائلـة والاسـتعداد للنضـال مـن جانـب الجماهـير التـي لا تتراجـع في وجـه القمـع ولا بوعـود تقديـم تنـازلات، ثالثًـا: عـلى الرغـم مـن تـوازن القـوى المـوالي لصالـح الطبقـة العاملـة، هنـاك غيـاب واضـح ومؤثـر للعامـل الـذاتي - قيـادة ثوريـة يمكنهـا دفـع الطبقـة العاملـة نحـو الاسـتيلاء عـلى السـلطة.

الآن ونحـن في أعمـق وأعقـد أزمـات النظـام الرأسـمالي، الطبقـة السـائدة لا تمتلـك حـلاً للأزمـة، حتـى حـل لصالحهـا لأنهـا تفتقـر إلى القاعـدة الاجتماعيـة لتأسـيس ردة رجعيـة قويـة مثـل المـاضي، المنظـمات العماليـة أكـثر انحطاطًـا بكثـير عـن المـاضي، وهـو مـا يشـكل مانعًـا لصـد حركـة الجماهـير، لكـن الجماهـير تتعلـم -ببـطء نوعًـا مـا ولكـن بثبـات واضـح- مـن خـلال التجربـة إجـرام النظـام وضرورة التغيـير.

نحـن في مرحلـة شـديدة الاضطـراب، مرحلة مـن التقلبـات والتغـيرات الحـادة، بمـا في ذلـك التغـيرات في الوعـي، ليـس هنـاك مـكان في العـالم في مأمـن مـن احتـدام الـصراع الطبقـي، كـما أثبتـت الأحـداث في بطـن الوحـش: الولايـات المتحـدة الأمريكيـة. سـوف نشـهد العديـد مـن موجـات المـد والجـزر، ومقبلـين عـلى مرحلـة طويلـة مـن الثـورات والثـورات المضـادة، الثـورات والانقلابـات.

يجـب أن نعمـل بأقـصى طاقتنـا لنلامـس مـزاج الجماهـير الـذي بـدأ في التغـير في كل مـكان، وبشـكل خـاص الشـباب. كتـب تروتسـكي في عـام 1931: "إن الوقـت، في الوضع العالمـي الحـالي، هـو أثمـن المـواد الخـام"، هـذا مـا يجـب أن نضعـه نصـب أعيننـا، إذا لم نكـن جاهزيـن سـوف تضيـع فـرص مهمـة يمكنهـا أن توفـر مدخـل لانتصـار الثـورة الاشـتراكية في المنطقـة والعـالم. بقـدر جاهزيتنـا للأحـداث المسـتقبلية بقـدر مـا سـوف نقلـص فـترة احتضـار النظـام الرأسـمالي شـديدة الاضطـراب والدمويـة التـي نعيـش في ظلهـا حاليًـا وولادة المجتمـع الاشـتراكي.

مهمـة الماركسـيين والثوريـين في كل مـكان هـي حـل هـذه المسـألة، مسـألة غيـاب العامل الـذاتي، مـن خـلال بنـاء تيـار ماركـسي قـوي، متجـذر في الطبقـة العاملـة، بمنظـور أممـي، يمكنـه التدخـل في الانتفاضـات والثـورات التـي سـتحدث لا محالـة في بلداننـا، لتغيـير مسـار الأحـداث. وتحقيـق، في بلـد تلـو الآخـر، انتصارًا حقيقيًـا سـيغير المجتمـع والمنطقـة، والعـالم بـأسره. هـذا مـا نسـعى إليـه في التيـار الماركسي الأممـي وندعـو كل مـن يتفـق معنـا للانضـمام إلينـا في هـذا النضـال العظيـم والمهمـة الثوريـة الأهـم: مهمـة بنـاء التيـار الماركـسي الأممـي.

- **تسقط الرأسمالية!**
- **عاشت الطبقة العاملة!**
- **عاش التيار الماركسي الأممي!**
- **مـن أجـل بنـاء منظـمات ماركسـية ثوريـة!**
- **لا بديـل سـوى انتصـار الثـورة الاشـتراكية بقيـادة حكومـة عماليـة!**

محمد حسام

23 يناير/كانون الثاني 2023

تلسكوب جيمس ويب

عين على كون لانهائي في الزمان والمكان

بعد ثلاثين عاما على إطلاق تلسكوب هابل، ها هو خلفه، تلسكوب جيمس ويب، يدخل الخدمة. توقع علماء الكونيات (Cosmologists) أنصار نظرية الانفجار الأعظم أن يُظهر لهم التلسكوب المجرات الشابة بعد "بداية" الكون بقليل. لكن تلسكوب جيمس ويب، بعد أن أطل في أعماق الكون، أرسل صورا تفند النظرية السائدة في علم الكونيات، وتشير إلى كون سرمدي في الزمان والمكان. هذا ما يوضحه الرفيقان: ديفيد غارسيا كولين وفينسنت أنجيرير الذي نُشر، بالإنجليزية لأول مرة، في العدد 39 من مجلة "الدفاع عن الماركسية".

الصور التي أرسلها تلسكوب جيمس ويب الفضائي (JWST) أذهلت العالم. هذه هي أدق وأبعد صور للكون حصلت عليها البشرية حتى الآن. وكما قد يتوقع المرء، فقد وصف أحد علماء الفلك اليسوعيين، العاملين في مرصد الفاتيكان، هذه الصور على أنها «تكشف لنا الإبداع الإلهي، ويمكننا من خلالها أن نرى قوته المذهلة وحبه للجمال»[1].

لكن وبعيدا عن تمجيد الإبداع الإلهي، بدأ التلسكوب الآن في إرسال البيانات التي تطرح تحديات خطيرة لأسطورة الخلق الحديثة المسماة: نظرية الانفجار العظيم. فكلما تعمق في الفضاء، يزيد في تفنيد الأحكام المسبقة القديمة حول أصل الكون وتطوره، ويلقي ضوء لامعا على المسائل العلمية والفلسفية العميقة والمهمة.

في دجنبر الماضي، تم وضع التلسكوب في مدار يبعد بـ 1,5 مليون كيلومتر عن كوكبنا، وبعد حوالي ستة أشهر من المعايرة و12 ساعة فقط من التشغيل الكامل، أنتج أكثر الصور إبهارا. فبفضل عينه القوية، التي تبلغ مساحتها 25 مترا مربعا، والقادرة على اكتشاف نطاق واسع من ضوء الأشعة تحت الحمراء، بقوة مائة مرة من سابقه -تلسكوب هابل-، يَعد تلسكوب جيمس ويب بإحداث ثورة في فهمنا للكون ومكاننا فيه.

قامت ناسا، خلال مؤتمر صحفي، بعرض خمس صور مذهلة.

في إحدى تلك الصور نلاحظ سديم كارينا، الذي يقع على بعد 7500 سنة ضوئية من الأرض: كتلة من الغاز والغبار التي هي حضانة لنجوم جديدة. هنا سيتمكن العلماء من أن يدرسوا بدقة سيرورة ولادة النجوم. وكما أوضحت عالمة ناسا، آمبر ستراوغن: «نرى عددا هائلا من النجوم حيث يتم رصد منحدرات كونية وبحر لا نهاية له. تظهر النجوم الصغيرة في سديم كارينا، حيث تشكل الأشعة فوق البنفسجية والرياح النجمية جدرانا ضخمة من الغبار والغاز. يمكننا أن نرى مئات

النجـوم الجديـدة. أمثلـة عـلى فقاعـات ونفاثـات أنشـأتها النجـوم حديثـة الـولادة، مـع وجـود المزيـد مـن المجـرات الكامنـة في الخلفيـة».

والصـورة المذهلـة الأخـرى هـي صـورة "سـديم الانفجـارات الثمانيـة". تظهـر نجـما في لحظـات موتـه، عـلى بعـد حـوالي 2500 سـنة ضوئيـة مـن كوكبنـا، محاطـا بدائـرة عملاقـة مـن الغـاز تشـبه أميبـا (Amoeba) ضخمـة مـع نجـم سـاطع يحتـضر في وسـطها. في "كارينـا" يمكـن للعلـماء دراسـة النجـوم عنـد ولادتهـا، بينـما نراهـا هنـا [سـديم الانفجـارات الثمانيـة] في سـيرورة موتهـا.

والصـورة الأكـثر إثـارة للدهشـة حقـا هـي تلـك التـي أخذهـا التلسـكوب لخماسـية سـتيفان "The Stephan Quintet"، التـي تبعـد حـوالي 300 مليـون سـنة ضوئيـة. تـم التقـاط صـورة لخمـس مجـرات، أربعـة منهـا تـدور حـول بعضهـا البعـض، وهـي أول مجموعـة مدمجـة مـن نوعهـا تمـت ملاحظتهـا عـلى الإطـلاق. يبـدو أن تلـك الرقصـة الكونيـة الهائلـة مرتبطـة بوجـود ثقـب أسـود، يُصـدر غـازا بطاقـة تعـادل نحـو 40 مليـار ضعـف لمعـان الشـمس. ووفقـا لعالمـة الفلـك في وكالـة الفضـاء الأوروبيـة، جيوفانـا جيارديـنو: «لا يمكننـا رؤيـة الثقـب الأسـود نفسـه، لكننـا نـراه يلتهـم المـادة الدوامـة (The swirling mate-rial)». يأمـل العلـماء أن يتمكنـوا، باسـتخدام هـذه البيانـات الأخـيرة، مـن الكشـف عـن نـوع التفاعـلات التـي تحـدث بـين المجـرات، والـدور الـذي تلعبـه مثـل هـذه الرقصـات المضطربـة في ولادة الكيانـات الكونيـة.

وعـلى بعـد 1150 سـنة ضوئيـة فقـط مـن الأرض، نلاحـظ كوكبـا غازيـا عملاقـا أطلـق عليه اسـمWASP-96b ، تبلـغ كتلتـه نصـف كتلـة المشـتري تقريبـا لكنـه أكـبر منـه بـ 1,2 مـرة، والـذي تـم العثـور داخـل غلافـه الجـوي عـلى دليـل عـلى وجـود المـاء. بخـار المـاء، الـذي هـو الـشرط المسـبق الأسـاسي لظهـور الحيـاة كـما نعرفهـا، يمكـن أن يكـون وفـيرا في الكـون. لقـد تـم اكتشـاف حـوالي 5000 كوكـب خارجـي (كواكـب خـارج نظامنـا الشـمسي) منـذ عـام 1995. وسيسـاعدنا تلسـكوب جيمـس ويـب عـلى دراسـتها وتحديـد مـا إذا كان بعضهـا

يمتلـك شروط الحيـاة.

تُظهـر الصـور الجديـدة التنـوع المدهـش للـمادة في كل اللحظـات المذهلـة العديـدة لتطورهـا. إنهـا تكشـف عـن كـون هـو مشـهد لسـيرورات هائلـة مـن الـولادة والدمـار، وتوتـرات لا يمكـن تصورهـا تنتـج النجـوم والمجـرات، والتـي تنشـأ منهـا ظـروف الحيـاة؛ صـور بانوراميـة مذهلـة تظهـر التعقيـد المتزايـد للـمادة في تطورهـا الديالكتيـكي.

الانفجار العظيم

ربمـا كانـت الصـورة الأكـثر روعـة وانتشـارا هـي تلـك التـي التقطـت مـن مشـهد مذهـل لمجـرات بعيـدة تُعـرف باسـم حقـل ويـب العميـق الأول. ووفقـا لبيـل نيلسـون، مديـر وكالـة ناسـا، يمثـل هـذا: «جـزءا صغـيرا مـن الكـون، بحجـم حبـة رمـل عـلى إصبـع ذراع ممـدودة». يمكـن ملاحظـة عـدد لا يحـصى مـن المجـرات مـن كل الأشـكال التـي يمكـن تخيلهـا في هـذا الجـزء المتـلاشي مـن السـماء: مجـرات ممـدودة (Elongated) ، ومجـرات مفلطحـة (Flattened)، ومجـرات دائريـة؛ بعضهـا شـديدة اللمعـان لدرجـة أنهـا تطغـى عـلى جيرانهـا. وأضـاف نيلسـون: «إن الكـون يغمرنـا. نحـن غـير قادريـن عـلى تصـوره وتخيـل ضخامتـه. هـل الوضـع أفضـل مـع هـذه الصـور؟ لا توجـد صـورة يمكـن أن تمثلـه بـكل عظمتـه، إلا أنـه ابتـداء مـن هـذا الأسـبوع صار لدينـا أقـرب تصـور عنـه. كنـا طـوال الأسـبوع نبحـث بشـغف في الصـورة الأولى التـي التقطهـا تلسـكوب جيمـس ويـب. كـمْ كان كارل سـاغان سيبتسـم اليـوم لـو أنـه تمكـن مـن رؤيـة هـذه الصـورة!».

أبعـد هـذه المجـرات -والتـي تظهـر كأقـواس مـن الأشـعة تحـت الحمـراء، بسـبب مـا يسـمى بـ "الانزيـاح الأحمـر"، وعدسـات الجاذبيـة التـي تشـوه شـكلها الظاهـري- أطلقـت ضوأهـا منـذ أكـثر مـن 13 مليـار سـنة، وفقـا للحسـابات الأوليـة، أي بعـد بضـع مئـات ملايـين مـن السـنوات فقـط عـن اللحظـة التـي يُفـترض، وفقـا لنظريـة الانفجـار العظيـم، أن الكـون بأكملـه قـد نشـأ فيهـا، قبـل 13,8 مليـار سـنة. إن رصـد المزيـد والمزيـد مـن المجـرات التـي تعـود إلى أزمنـة بالـكاد تتجـاوز بقليـل البدايـة المفترضـة للكـون يثـير تسـاؤلات جديـة حـول مـدى صحـة نظريـة الانفجـار العظيـم. كيـف يمكـن تفسـير وجـود مجـرات مشرقـة مكتملـة التكويـن في مـا يمكـن اعتبـاره مجـرد

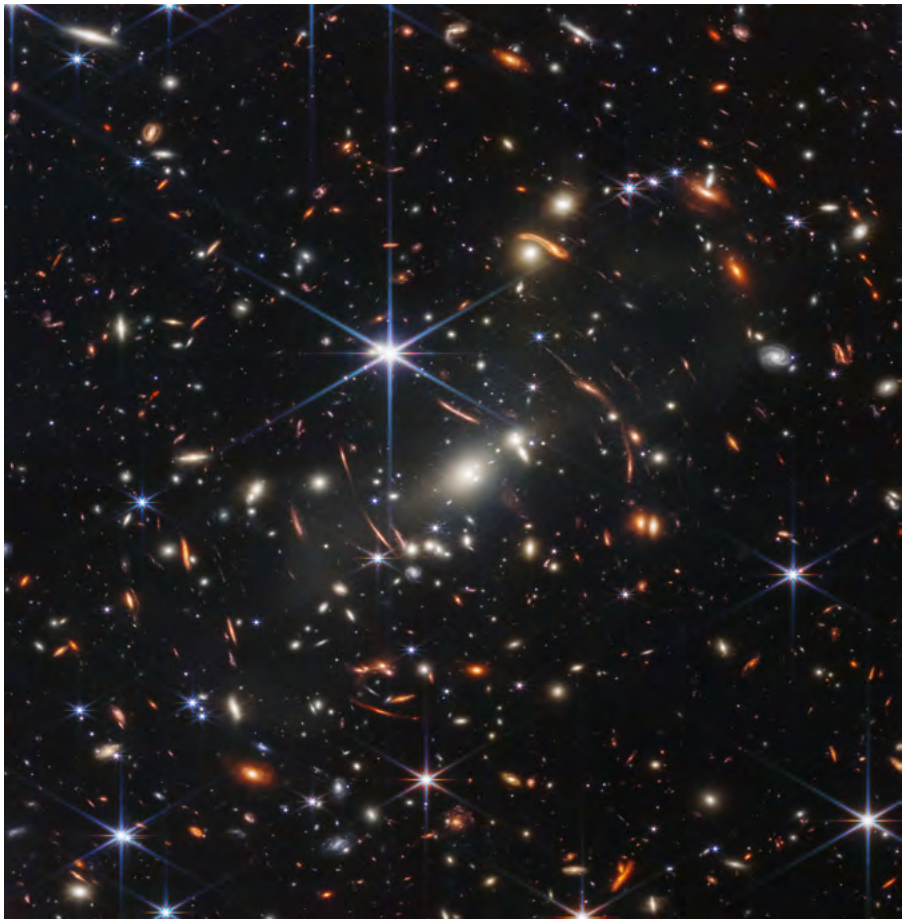

لحظة بعد نشوء الكون؟ إن ذلك أشبه بمشاهدة شخص يَظهر مكتمل البلوغ مباشرة بعد الولادة. لكن وفقا لأكثر النماذج المقبولة على نطاق واسع عن تشكيل المجرات، تتشكل المجرات العملاقة من سحب صغيرة باهتة تتجمع تدريجيا من خلال الاندماجات الكونية. هذه السيرورة تستغرق مليارات السنين.

في الوقت الذي من المفترض أن يكون الكون فيه ما زال في بدايته، تتوقع تلك النظرية وجود فقط مجرات قزمة، صغيرة وباهتة لدرجة أننا بالكاد نتوقع رؤية أي شيء منها على الإطلاق. أما المجرات العملاقة فتتشكل فقط في وقت لاحق من الاندماجات الكونية. إلا أنه لدينا هنا، في الصور الأولى التي أرسلها تلسكوب جيمس ويب، مجرات عملاقة بالفعل: عملاقة إلى درجة أنه ليس من الممكن أن تكون قد تشكلت ببساطة في الزمن المحدد لها في نظرية الانفجار العظيم.

حتى عمليات الرصد التي سبقت تلك الخاصة بتلسكوب جيمس ويب كانت تصيب بالفعل بعض علماء الفلك بشكوك مقلقة. ففي عام 2016، تم اكتشاف مجرة GN-z11 . تقول النظريات المعتمدة إن ضوأها ينبعث منذ ما قبل 13,4 مليار سنة، أي بعد 400 مليون سنة فقط من الأصل المفترض للكون. إن 400 مليون سنة، من وجهة النظر الفلكية، ليست سوى هنيهة صغيرة. وفي عام 2020، تم اكتشاف أقدم ثقب أسود تم رصده حتى الآن، يبلغ عمره 12,8 مليار سنة. لكن كيف يمكن أن ينشأ الثقب الأسود في وقت كان يُفترض أن المادة منتشرة للغاية بحيث لا تتسبب في انهيار الجاذبية؟ تقول بيكي سميثورست، الباحثة في جامعة أكسفورد والمتخصصة في الثقوب السوداء:

«لنفترض أن النجوم الأولى شكلت ثقوبا سوداء بعد حوالي 200 مليون سنة من الانفجار العظيم. لدينا، بعد أن انهارت تلك النجوم، حوالي ثلاثة عشر مليار سنة ونصف لينمو الثقب الأسود إلى مليارات أضعاف كتلة الشمس. إلا أن هذا وقت قصير جدا للحصول على هذا الحجم الكبير من خلال النمو التدريجي فقط»[2].

ثم، في عام 2021، تم اكتشاف مجرة BRI 1335-0417، وهي مجرة حلزونية عمرها 12,4 مليار سنة، أي قبل حوالي مليار سنة من الوقت الذي يُعتقد أنه من الممكن فيه، وفقا لنظرية الانفجار العظيم، تشكل هذا النوع من المجرات المعقدة. قال عالم الفيزياء في جامعة الباسيفيك[3]، غيليرمو بارو: «لقد اكتشفنا "فيلة الماموث" في الكون في وقت من المفترض فيه ألا تكون موجودة. والآن نحن بحاجة إلى مزيد من البيانات لمعرفة كيف وصلت إلى هناك». يَعد تلسكوب جيمس ويب بإلقاء مزيد من الضوء على هذه الأسئلة. إلا أننا نتوقع أن البيانات الجديدة سوف تؤدي فقط إلى خلق المزيد من المشاكل لمؤيدي نظرية الانفجار العظيم.

ما يزال الوقت مبكرا، ولا بد من إجراء تحليل أكثر صرامة لتأكيد الملاحظات الأولية، لكن البعض يعتقدون بالفعل أن تلسكوب جيمس ويب قد صور أقدم المجرات التي تم اكتشافها حتى الآن: GLASS-z11 وGLASS-z13، اللذان يطلق عليهما اسم Glassy[4]. ووفقا للتحليل الأولي فقد تشكلت هاتان المجرتان بعد 300 مليون سنة فقط من الانفجار العظيم. بالمقارنة معهما، يبلغ عمر كوكبنا 4,5 مليارات سنة، وتستغرق مجرتنا، درب التبانة، 200 مليون سنة لإكمال دورة واحدة فقط! لا تستطع النظرية الكلاسيكية عن تطور المجرات أن تفسر كيف تكونت هذه المجرات في مثل هذا الوقت القصير. وهذه ليست سوى البداية، إذ تدعي دراسات أخرى أنها تعرفت على مجرات أقدم. وعلى حد تعبير صحفي علمي فإنه:

«في الواقع لقد اكتشف علماء الفيزياء الفلكية بالفعل أن الكون المبكر قد يكون أكثر انشغالا مما كانوا يتوقعون. ربما تكون النجوم قد بدأت تتشكل بمعدل أسرع بكثير مما توقعه بعض النماذج. كيف اندمجت المادة وبدأت في تكوين هذه المجرات في وقت مبكر؟ لا نعرف بعد. لكن تلسكوب جيمس ويب، على ما يبدو، يعيد بالفعل كتابة ما اعتقدنا أننا نعرفه عن بداية، حسنا، بداية كل شيء»[5].

وفي إشارة إلى "Glassy"، يتابع المقال نفسه، قائلا: «علماء الفلك منبهرون بإمكانية Glassy، والتي، بالإضافة إلى كونها محطمة محتملة للأرقام القياسية، فهي أيضا أغرب بكثير مما كانوا يتصورون. لطالما

اعتقد علماء الفلك أن المجرات لا يمكنها أن تكون كبيرة جدا في وقت مبكر من تاريخ الكون، وأنها ستبدأ في الانتفاخ بالنجوم بعد حوالي 500 مليون سنة من الانفجار العظيم. لكن Glassy شديدة السطوع، مما يشير إلى أنها تحتوي على وفرة من النجوم، والتي يبلغ حجم كتلتها مجتمعة مليار مرة كتلة شمسنا»[6].

ليس وحده حجم هذه المجرات ما يطرح مشكلة للنظرية السائدة. بل وكذلك تكوينها. تشير المواد التي تتكون منها عادة، إلى أنه قد تمت إعادة تدويرها على مدى أجيال عديدة من تكوين النجوم. يقول منظرو الانفجار العظيم إن كل ما كان موجودا بعد الانفجار الأولي الذي أنتج الكون، هو الهيدروجين والهيليوم وكميات ضئيلة من العناصر الثقيلة. لكننا وجدنا بالفعل وفرة مفاجئة من العناصر الثقيلة والغبار، التي نتجت في النجوم السابقة، في تلك المجرات المبكرة. ومرة أخرى، على حد تعبير عالم درس مثل هذه المجرات المبكرة في عام 2020:

«توصلنا، من خلال الدراسات السابقة، إلى أن مثل هذه المجرات الفتية تفتقر إلى الغبار. إلا أننا وجدنا حوالي 20% من المجرات التي تجمعت خلال تلك الحقبة المبكرة هي بالفعل غنية جدا بالغبار وأن جزءا كبيرا من الضوء فوق البنفسجي من النجوم حديثة الولادة مخفي بالفعل بواسطة ذلك الغبار»[7].

إن مسألة تكوين المجرات -التكتلات الهائلة للغازات والغبار والنجوم الدوامة (Swirling)- ليست سوى قمة جبل الجليد. لقد كشف علم الفلك الرصدي عن بنيات كبيرة جدا جدا، مما تسبب في إرباك تام لعلماء الفلك أنصار نظرية الانفجار العظيم. فوفقا للافتراضات التي تشكل جزءا من نظرية الانفجار العظيم، لا يمكن لأي جسم كوني أن يزيد اتساعه عن 250 مليون سنة ضوئية[8]. ومع ذلك فإن علماء الفلك يكتشفون كل عام بنيات عملاقة أكبر فأكبر يبلغ اتساعها ملايير السنين الضوئية.

في عام 2021، اكتشف علماء الفلك بنية أطلق عليها اسم "القوس العملاق". وعلى الرغم من أنها خافتة جدا، بحيث لا يمكن

رؤيتها بالعين المجردة، فإنها تغطي مساحة واسعة من السماء. ومع ذلك، فإن هذه السلسلة الهائلة من المجرات تقع على بعد 09 مليارات سنة ضوئية، ويبلغ طولها 3,3 مليارات سنة ضوئية. ليس هناك شك في أن تلسكوب جيمس ويب سيستمر في اكتشاف بنيات عملاقة الأخرى، وربما بعض البنيات التي تكون أكبر حتى من "القوس العملاق"[9].

حتى الضوء نفسه سيستغرق مليارات السنين لاجتياز مثل هذه البنية. وسيستغرق السقوط الحر للمادة بفعل الجاذبية دهورا.

توجه هذه الاكتشافات ضربات ثقيلة لنظرية الانفجار العظيم. لقد انتهى ذلك الوقت الذي كان في مقدور المدافعين عن النظرية الاستمرار في لي عنق المعطيات، بالطريقة التي فعلوها على مدى عقود ، لفرض الملاحظات لتناسب وجهة نظرهم المسبقة.

يتقدم العلم الحقيقي مع ابتكار نظريات مهمتها شرح ملاحظاتنا. تراكم الملاحظات التي لا يمكن تفسيرها، يتطلب في مرحلة معينة مراجعة النظرية. هناك بالتأكيد مزاج مشوش بين علماء الفلك. مزاج "الذعر!"[10]. كما يقول أحد العناوين. وقد غردت أليسون كيركباتريك، من جامعة كانساس، قائلة: «أنا في الوقت الحالي، في الساعة الثالثة صباحا، ما أزال ساهرة مستلقية أتساءل عما إذا كان كل ما فعلته خطأ».

ومع ذلك فإن وعي نخب المجتمع العلمي محافظ للغاية. ولذلك فإنهم بدلا من التشكيك في النظرية السائدة - نظرية الانفجار العظيم- تجدهم ينكرون على المجرات سيرورة تطورها. فبالنظر إلى الأدلة على أن المجرات قديمة قدم الكون نفسه تقريبا، يفترض مؤيدو نظرية الانفجار العظيم أن المجرات المبكرة تشكلت أسرع مما كان يُفترض في البداية.

لا يوجد سبب لافتراض أن تاريخ الكون المحلي لم تتخلله فترات من التطور المفاجئ. يزخر الكون بسيرورات ديالكتيكية حادة ومفاجئة. وبالتالي فإن محاولات تعديل المقاربة لزمن ولادة المجرات ليس لها أي علاقة بتفسير ميلاد المجرات، بل كل غايتها إنقاذ نظرية أصبحت موضع تشكيك متزايد في ضوء الاكتشافات الجديدة.

انزياح دوبلر

عانت نظرية الانفجار العظيم من العديد من مثل هذه "التعديلات" في تاريخها. لقد نشأت هذه النظرية الكونية من أكثر الافتراضات عبثية في تاريخ العلم. خلال عشرينيات القرن الماضي، اكتشف عالم الفلك، إدوين هابل، أنه كلما ابتعدت المجرة عنا، كلما بدت أكثر احمرارا. يمكن تفسير هذا الاحمرار بالإشارة إلى ما يُعرف باسم "تأثير دوبلر"، حيث تبدو أطياف ضوء الأجسام التي تبتعد عنا أكثر احمرارا. ومن هنا خلص علماء الفلك إلى أن الكون المرئي يبدو أنه يتوسع. إلا أنه تم تمطيط هذا الاستنتاج إلى أقصى حدوده وأكثرها سخافة: إذا كان كل شيء يتحرك بعيدا عن أي شيء آخر، فلا بد أنه، في وقت ما من تاريخ الكون، كانت كل المادة مركزة في نقطة واحدة (يسميها المدافعون عن نظرية

الانفجار العظيم "المتفرد") ليست أكبر من ذرة هيدروجين واحدة. وفي ذلك الوقت، لم تظهر كل المادة والطاقة فقط، بل من المفترض أن نسيج المكان والزمان ذاته قد ظهر إلى الوجود أيضا.

لكن انزياح دوبلر هو، في أفضل الأحوال، دليل على توسع قطاع من الكون، وليس على بداية وحيدة ومطلقة للزمان والمكان. لدينا هنا مثال مؤسف لحقيقة يتم دفعها إلى حدودها السخيفة والقيام فعليا بقفزة كونية. لا يتعلق الانفجار العظيم بالأدلة العلمية بقدر ما يتعلق بالتفسير الفلسفي للأدلة. إن كون جزء من الكون داخل أفقنا الضيق يبدو أنه يتمدد، لا يسمح لنا بأن نؤكد أن الكون بأسره يفعل ذلك، فبالأحرى أن نستخلص من هذه الحقيقة أن كل هذا ينتج من نقطة متفردة ظهر منها المكان والزمان بشكل غامض.

ينكر البعض أن الانفجار العظيم يعني بداية الزمن. يزعمون أن نظرية الانفجار العظيم تفترض فقط أن الكون كان موجودا في حالة حارة وكثيفة في الماضي. ومع ذلك فإن علماء كونيات معاصرين بارزين يدافعون في الواقع عن بداية الزمن. أوضح ستيفن هوكينغ أن «(الكون) لم يكن موجودا منذ الأزل. بل لقد كان للكون، والزمن نفسه، بداية مع الانفجار العظيم... بداية الزمن الحقيقي، كان يمكن أن تكون حالة مفردة، حيث يمكن أن تنهار قوانين الفيزياء»[11]. لكن بصراحة كل نظريات الانفجار العظيم البديلة التي تحاول تجنب المتفرد ("الارتداد الكبير"، اصطدام الأغشية، إلخ) ليست أقل تخمينا أو عبثية من فكرة المتفرد.

عالم الفلك الذي كان أول من اقترح فرضية الانفجار العظيم في عشرينيات القرن الماضي، جورج لوميتر، لم تكن لديه بالتأكيد مشكلة مع فكرة أن الانزياح الأحمر الكوني يثبت بطريقة ما أن الكون قد نشأ من العدم. فبسبب كونه كاهنا، كان واضحا له كيف يمكن خلق الكون من لا شيء: لقد خلقه الرب. وقد فاز لوميتر بمديح الفاتيكان لإسهامه في تعزيز الإيمان.

ومع ذلك، فقد يبدو من المثير للإعجاب أن هذه النظرية، التي تم اقتراحها لأول مرة في عشرينيات القرن الماضي، قد اجتازت اختبارات علم الفلك الرصدي لمدة قرن كامل. لكن نظرية الانفجار العظيم كما هي اليوم لا تحمل سوى تشابه سطحي مع فرضية لوميتر الأصلية، وذلك على وجه التحديد بسبب فشلها المتكرر في التوافق مع نتائج الرصد. كان "النجاح" الملحوظ الوحيد لنظرية الانفجار العظيم في القرن الماضي هو اكتشاف ما يسمى إشعاع الخلفية الكونية الميكروي (CMBR) في عام 1965، إشعاع الجسم الأسود الذي يتخلل الفضاء، ودرجة حرارته 2,7 درجة كلفن.

لكن حتى هذا الاكتشاف لم يتوافق مع التوقعات. إذ إنه إذا كان الكون يتمدد، فإن الضوء الذي يصل إلينا من جزء من السماء ينبعث من مصدر **لا يمكنه أبدا** أن يكون على اتصال سببي مع المنطقة التي ينبعث منها الضوء في الجزء المقابل له مباشرة من السماء. ومع ذلك فإن لهما، بطريقة ما، نفس درجة الحرارة. ولأخذ هذه الملاحظات، وغيرها من الملاحظات غير المبررة، في الاعتبار، تم اختراع ما يسمى بـ"حقل التضخم" أي فترة تمدد سريع جدا خلال بدايات تشكل الكون. لا توجد آلية معروفة لمثل هذه المرحلة من التوسع العجائبي. لقد تم اختراعه ببساطة لإنقاذ النظرية. إنها واحدة من عدد من النظريات الرياضية البحتة التي لا يوجد دليل مادي عليها، والتي اخترعها علماء الكونيات لإنقاذ النظرية. بينما تضيف نظريات أخرى المادة المظلمة والطاقة المظلمة، التي **لم يسبق** لعلماء الكونيات أن رأوها مطلقا، لكنهم يزعمون أنها تشكل 95% من الأشياء المشكلة للوجود. والقصة الأحدث عن المجرات وطفولتها المبتورة هي مجرد أحدث إضافة رياضية لنظرية بدأت تنوء تحت وطأة تناقضاتها.

إن فكرة ظهور الزمان والمكان والمادة والطاقة من لا شيء، لا تتوافق إطلاقا مع النظرة المادية للطبيعة.

توضح كل التجربة الإنسانية أنه لا يمكن خلق المادة أو تدميرها. المادة هي سبب نفسها الخاص: تندمج وتتشتت وتعاود الاندماج بشكل سرمدي. إن افتراض أي فعل من أفعال الخلق يطرح السؤال التالي: ما سبب ذلك؟ إذا لم يكن عاملا ماديا (ووفقا لنظرية الانفجار العظيم فإنه لا يمكن أن يكون عاملا ماديا، لأن المادة نفسها إنما ظهرت مع الانفجار العظيم) فلا بد أنه كان خالقا غير مادي: الله.

ربما تم تمطيط تاريخ الخلق من 6000 سنة، إلى 13,8 مليار سنة، لكن هذا لا يقلل من سخافته. كلّا، إننا بصفتنا ماديون نرفض فكرة خلق المادة من العدم. الكون المادي لانهائي ومتطور. من المؤكد أن هذا يطرح مشاكل جديدة: فالكون اللانهائي بالطبع سيحتوي دائما على المزيد مما يجب اكتشافه. وعندما يتم حل المشاكل القديمة، تطرح مشاكل جديدة أعلى. ولكن مثلما ظهرت أسطورة الخلق في سفر التكوين فقط "لتحل" مشكلة من أين أتت الأرض، وهي مشكلة كانت غير قابلة للتفسير حتى تم اكتشاف الأصل السديمي للأرض في القرن الثامن عشر؛ فكذلك يبدو أن فعل الخلق الخاص بنظرية الانفجار العظيم إنما هو فقط "ليحل" مشكلات مثل انزياح دوبلر وإشعاع الخلفية الكونية الميكروي.

نحن لسنا علماء كونيات. نحن لا نتظاهر، بأي حال من الأحوال، بتقديم حلول كاملة لمثل هذه المشاكل. لكننا على ثقة من أن الاكتشافات والملاحظات الجديدة - مثل تلك الخاصة بجيمس ويب- ستؤكد النظرة المادية وتضرب فكرة الخلق.

ثورة كوبرنيكية

عندما نتوقف ونستعرض الوضعية الحالية لعلم الفلك المعاصر، نتذكر الأزمة التي عصفت بعلم الفلك القائل بـ "مركزية الأرض" خلال القرن الخامس عشر. فنظرية مركزية الأرض في الكون، مثلها مثل نظرية الانفجار العظيم اليوم، كانت موجودة منذ وقت طويل -أطول بكثير، في الواقع، من نظرية الانفجار العظيم-! دافع أناكسيماندر عن تلك النظرية في القرن السادس قبل الميلاد. ثم أعطاها أرسطو شكلا أكثر دقة بحلول عام 350 قبل الميلاد، حيث تحدث عن دوران الشمس والقمر والنجوم والكواكب حول الأرض على طول مسارات دائرية. لكن عالم الفلك الإسكندري بطليموس هو الذي أعطى النظرية تعبيرا نهائيا، بل وأنيقا إلى حد ما، بحلول القرن الثاني الميلادي.

في ذلك الكون "البطلمي"، تم تثبيت الشمس والقمر والنجوم في مجالات بلورية تدور حول الأرض. حركة الكواكب تم تلفيقها. ومن أجل شرح حركتها إلى الوراء، تم وضعها على أفلاك سماوية، تسمى أفلاك التدوير، داخل مجالات أخرى، تسمى المؤجِّلات (Deferents). على الرغم من جميع عناصره المختلقة، قام هذا النموذج للكون بعمل جيد للغاية في وصف الملاحظات التي تم إجراؤها حتى تلك الفترة الزمنية. إلا أنه تراكمت ملاحظات جديدة وأكثر دقة مع توالي القرون. تم إجراء أبحاث فلكية ممتازة على أساس علم الكونيات القديم الذي صار متجاوزا الآن، لكن النظرية القديمة كافحت لاحتواء نتائج تلك الأبحاث.

وبدلا من أن يقوم علماء الفلك بالتخلص من النظرية القديمة، ابتكروا مجالات جديدة داخل المجالات القديمة.

تمت مضاعفة مجالات التدوير والمؤجلات من أجل جعل الحقائق الجديدة مناسبة للنظرية، مثل "التضخم" و"المادة المظلمة" و"الطاقة المظلمة" في وقتنا الحالي. بحلول القرن الخامس عشر، صارت النظرية القديمة في حالة أزمة وتنتظر رصاصة الرحمة، التي أطلقها كوبرنيك بشكل فعال عام 1543، عندما أصدر وهو على فراش الموت مؤلفه الذي بعنوان: De Revolutionibus Orbium Coelestium (حول دوران الأجرام السماوية).

نفى كوبرنيك أن تكون الأرض نقطة مركزية ثابتة للكون، وقال إنها تتحرك جنبا إلى جنب مع جميع الكواكب الأخرى، على طول مدارات شبه دائرية حول الشمس. كانت تلك ثورة هائلة في علم الفلك، ونقطة البداية الحقيقية للعلم الحديث في أوروبا. لكن نفي النظرية القديمة لا يعني تدميرها الكامل. في الواقع، لم تكن نظرية كوبرنيك مختلفة رياضيا على الإطلاق عن النظرة البطلمية القديمة، كما أظهر ذلك لاحقا عالم الفلك الدنماركي، تايكو براهي، في سياق صراعه ضد الكوبرنيكية. عندما تحل نظرية علمية محل نظرية قديمة، تعمل، في الواقع، دائما على استيعاب ما هو عقلاني في النظرية القديمة، في سيرورة نفي ديالكتيكية، والتي لا تعني أبدا القضاء بشكل كامل على القديم لصالح الجديد.

رفضت النظرة البطلمية القديمة المتحجرة الموت من تلقاء نفسها، وبقي لها العديد من المؤيدين الأقوياء بعد فترة طويلة من وفاة كوبرنيك. كانت قد أصبحت جزءا لا يتجزأ من النظرة الرسمية للكنيسة عن الكون، حيث توجد الأرض (والإنسان) في مركز خلق الله، تحيط بهما أفلاك سماوية متقنة الصنع. كانت تلك السماوات موطنا لتسلسل هرمي كامل من الملائكة ورؤساء الملائكة، حيث يوجد بالطبع -في الأعلى وراء النجوم- الله نفسه. قاومت المؤسسة القديمة النظرية الجديدة بإرهاب محاكم التفتيش، الشيء الذي أدى إلى إسكات غاليليو وإحراق جيوردانو برونو.

من الغريب أن المؤسسة العلمية اليوم وجدت في الكنيسة الكاثوليكية حليفا قويا في الدفاع عن نظرية الانفجار العظيم. لقد تصالح الأعداء القدامى! لحسن الحظ لم يعد الهراطقة الذين يقفون ضد نظرية الانفجار العظيم يواجهون محاكم التفتيش. لكنهم يواجهون عقبات ربما تكون أكثر قوة. مجال العلوم الأكاديمية سوق كبير للغاية، حيث يتم استثمار مليارات الدولارات في النظريات والمؤسسات. قد تكون نظرية ما متجاوزة، لكنها إذا كانت مرتبطة بملايين الدولارات في شكل استثمارات، فإنه لن يتم إسقاطها بسهولة. عند بزوغ فجر الثورة العلمية، كانت الرأسمالية قوة ثورية. لكنها اليوم تعيق التقدم العلمي. ما تزال نظرية الانفجار العظيم مستمرة اليوم لأنها "أكبر من أن تفشل".

هناك العديد من العلماء الأكفاء من الناحية العلمية، والذين قدموا كل أنواع الإسهامات المعقدة في مجال نظرية الانفجار العظيم. نحن لا نشكك في قدراتهم، بل نسائل تفسيرهم الفلسفي للأدلة. معظم

العلماء لا يمتلكون فلسفة واعية خاصة بهم. وبالتالي فإنهم سوف يميلون حتما إلى تبني شظايا الفلسفات السائدة في المجتمع، والتي تعكس مصالح الطبقة السائدة المنحطة التي تعمل في عهد انحطاطها على إحياء الأفكار الدينية القديمة.

تميل الأوساط الأكاديمية في اتجاه المثالية الفلسفية، بقيادة طبقة سائدة تتمسك بـ "يد الله"، وأرستقراطية أكاديمية تدافع بشدة عن مصالحها ومكانتها وميزانياتها ومنحها الدراسية. والعلوم ليست استثناء. الاستنتاج المنطقي للنظرة المثالية هو خلق العالم، حيث تأتي المادة إلى الوجود من العدم الخالص. وتحت لباس نظرية الانفجار العظيم، شق هذا الرأي طريقه إلى أروقة الأوساط الأكاديمية المحترمة.

لكن هذا مجرد تيار واحد. ففي مقابل ذلك، هناك العديد من العلماء الذين يرغبون في الوقوف ضد تيار المثالية والتصوف في العلوم. والعالِم الجدير بالذكر في هذا السياق هو إريك ليرنر، الذي تم نبذه من قبل المجتمع العلمي لموقفه الشجاع ضد الانفجار العظيم. ونحن نوصي بشدة بقراءة مقالته "The Big Bang didn't happen" (الانفجار العظيم لم يحدث)، الذي يعلق على نتائج اكتشافات جيمس ويب.

يفهم الماركسيون أن النضال ضد الرأسمالية المحتضرة ليس فقط نضالا سياسيا واقتصاديا، بل إنه أيضا نضال أيديولوجي. وكما أوضح لينين فإنه يجب على الماركسيين في تلك المعركة، أن يتعلموا إيجاد حلفاء بين «صفوف علماء الطبيعة المعاصرين الذين يميلون إلى المادية ولا يخشون الدفاع عنها والوعظ بها ضد الميل الفلسفي المألوف إلى المثالية والشكوكية السائدين فيما يسمى بالمجتمع المتعلم»[12].

[**ملاحظة**: تمت كتابة هذه المقالة لأول مرة قبل ملاحظة مشاكل المعايرة مع التلسكوب وتصحيحها. لقد أقصت هذه المعايرات بعض المجرات المرشحة ذات الانزياح الأحمر المرتفع، لكن ليس كل تلك الأجسام بأي حال من الأحوال، وهو ما يستمر في إرباك علم الكونيات السائد].

ديفيد غارسيا كولين وفينسنت أنجيرير
أكتوبر / تشرين الأول 2022

كتاب: "البلشفية: الطريق نحو الثورة" للمنظر الماركسي آلان وودز عن الحزب البلشفي، الذي يتقصى بدقة وعمق تاريخ الحزب البلشفي من كل جوانبه، ويشرح كيف تمكن، عبر تاريخ من العمل الدؤوب، من قيادة الطبقة العاملة إلى حسم السلطة، وذلك مساهمة منا في خدمة قضية بناء الحزب الثوري والتي نعتبرها مهمة ملحة وآنية، ملقاة على الجيل الجديد من الشباب الثوري.

لقد قمنا بإصدار الترجمة العربية لهذا الكتاب الهام احتفاء بالذكرى الخامسة بعد المائة لثورة أكتوبر العظيمة، ولتحميل الكتاب يمكنكم الضغط على الصورة، تواصلوا معنا لإبداء أرائكم حول مضمون الكتاب، ولنعمل جميعا من أجل نشر الفكر الثوري في العالم ومنطقتنا.

مراجع وهوامش:

1: خدمة الأخبار الكاثوليكية (Catholic News Service)، علق عالم فلك يسوعي على صورة تلسكوب ويب قائلا: «هذا خلق الله يتكشف لنا». (America: the Jesuit Review, 14 July 2022).

2: P Barss, The mysterious origins of Universe's biggest black holes, BBC, 23 August 2021.

3: Editorial, Hallados los 'mamuts' galácticos del universo joven, La Vanguardia, 14 May 2019.

4: R P Naidu et al., Two Remarkably Luminous Galaxy Candidates at z≈11–13 Revealed by JWST, Cornell University, Preprint, 19 July 2022.

5: J Ryan, The Webb Space Telescope Might Have Already Smashed Its Own Record, Cnet, July 26 2022.

6: ibid.

7: Editorial, Galaxies in the Infant Universe Were Surprisingly Mature, National Radio Astronomy Observatory, 27 October 2020.

8: J K Yadav; J S Bagla; N Khandai, "Fractal dimension as a measure of the scale of homogeneity", Monthly Notices of the Royal Astronomical Society, 405 (3), 25 February 2010.

9: C Wood, Cosmologists Parry Attacks on the Vaunted Cosmological Principle, Quanta Magazine, 13 December 2021.

10: L Ferreira et al., Panic! At the Disks: First Rest-frame Optical Observations of Galaxy Structure at z>3 with JWST in the SMACS 0723 Field, Cornell University, 19 July 2022.

11: S Hawking, The Beginning of Time, Lecture, 1996.

12: V I Lenin, "On the Significance of Militant Materialism", Lenin Collected Works vol 33, Progress Publishers, 1973, pg 232.

مجلة "New Scientist" ضد الواقع

أثار تقديم جائزة نوبل للفيزياء، لعام 2022، الكثير من النقاشات على أعمدة الصحف العلمية الشعبية حول كيف أثبت عمل العلماء الثلاثة الحاصلين على الجائزة أنه لا يوجد شيء يسمى "الواقع الموضوعي"، وأن العالَم ليس حقيقيا. حتى لجنة جائزة نوبل نفسها نجحت في تحريف العلم. لقد حقق التصوف المثالي الكثير من التقدم في العلوم، ويتم التعبير عنه بالشكل الأكثر فجاجة في المجلات العلمية الشعبية. وقد يكون أسوأ نموذج هو مجلة "New Scientist" التي تحظى بتقدير كبير، كما يوضح الرفيق جو أتارد في هذا المقال الذي نشر بالإنجليزية لأول مرة في العدد 37 من مجلة "In Defence of Marxism"

ملاحظة حول جائزة نوبل للفيزياء لهذا العام

تم الاحتفال بالفائزين الثلاثة بجائزة نوبل للفيزياء لهذا العام -وهم: آلان أسبيكت، وجون إف كلاوسر، وأنتون تسايلينغر- لأنهم أثبتوا أن العالم ليس "حقيقيا محليا"[1]. ووفقا للجنة جائزة نوبل نفسها، فإن الآثار المترتبة عن عملهم "[تعني] أنه لا يمكن استبدال ميكانيكا الكم بنظرية تستخدم متغيرات خفية".

ميكانيكا الكم هي في الأساس نظرية احتمالية. وأولئك الذين يفسرون ميكانيكا الكم بطريقة مثالية سعيدون بالقول بأن ذلك يشمل كل شيء. لأنه إذا كان العالم لا يظهر إلا عندما ننظر إليه، فقد يكون موجودا أيضا في سديم غير محدد عندما **لا نكون** بصدد مراقبته. أما بالنسبة للماديين فإن سلوك المادة حتمي، أي أنها تخضع لقوانين السبب والنتيجة. يُشار إلى النظريات التي تشرح ميكانيكا الكم باللجوء إلى قوانين حتمية أعمق (أي النظريات التي تحتفظ بالسبب والنتيجة!) على أنها نظريات "المتغير الخفي". وهذا هو معنى قول آينشتاين المأثور: "الله لا يلعب النرد". لقد كان يعتقد أنه يجب أن يكون هناك سبب أعمق وأكثر جوهرية.

لكن لجنة جائزة نوبل مؤخرا قد أعلنت بابتهاج أن ثلاثة علماء قد تمكنوا الآن من نفي السبب والنتيجة عن العلم، وأثبتوا أن العالم موجود في "سديم كمومي" يبقى غير محدد إلى أن نلاحظه، عندها يظهر أخيرا إلى حيز الوجود. هذا غير صحيح بشكل قاطع.

إن إنكار السبب والنتيجة يفتح الباب لاستنتاجات صوفية رجعية. فسر موقع Big Think العلمي الشهير بحث العلماء الثلاثة على أنه يعني أن «الواقع الموضوعي، الخالي من أفعال المراقِب، لا يبدو أنه موجود بأي شكل من الأشكال الجوهرية».

هذه مثالية ذاتية خالصة ومطلقة. وهذا ليس ما اكتشفه العلماء الفائزون بالجائزة. إن اكتشافاتهم مثيرة للاهتمام جدا، لكن الهراء الذي يكتب عن عملهم يسيء إليهم.

إن ما اكتشفوه في الواقع كان طرقا للاختبار العملي لنظرية الفيزيائي جون بيل، المشهورة باسم "متباينة بيل". متباينة بيل هي إطار نظري لوضع حدود يمكننا بعدها استبعاد السببية **المحلية**. لكن هذا لا يعني التخلص من السببية بشكل عام. بل يبدو أنها تشير إلى أن السبب والنتيجة **غير محليين**، أي أنهما قادران على العمل على المستوى الكمومي عبر مسافات شاسعة. في الواقع، لقد فضل بيل نفسه نظريات المتغيرات الخفية غير المحلية لديفيد بوم.

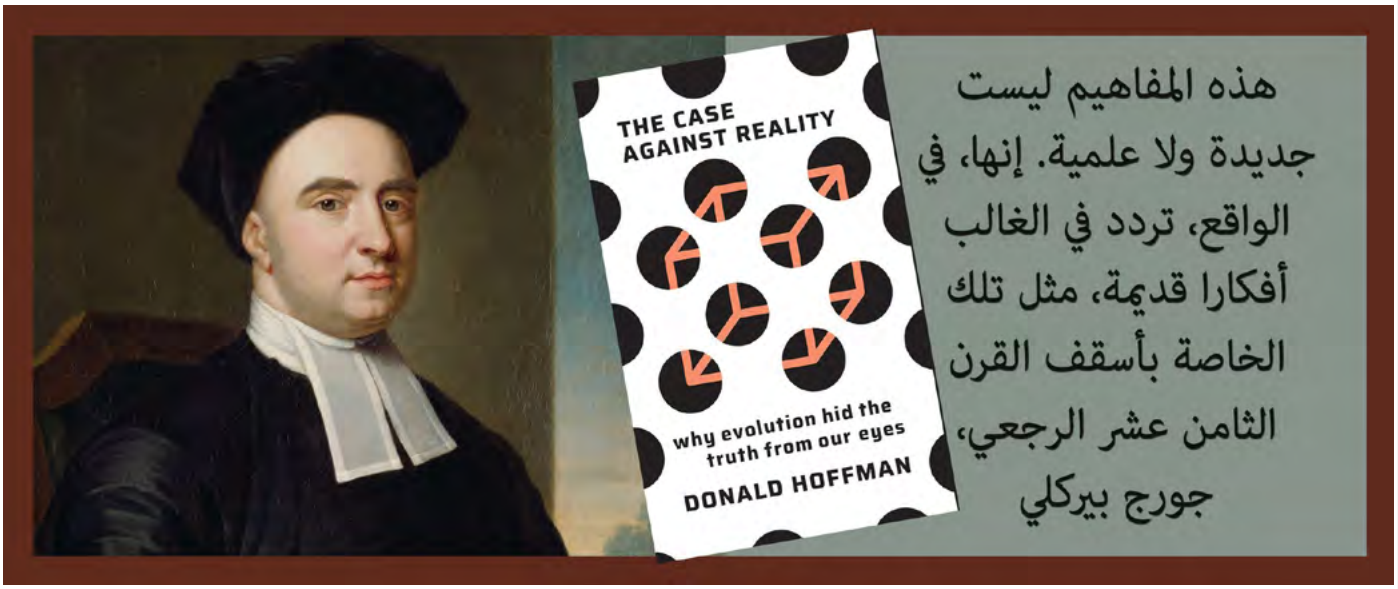

هـذا اكتشـاف رائـع بمـا فيـه الكفايـة في حـد ذاتـه. إنـه يتعـارض مـع الإحسـاس الفطـري (Common sense)، الـذي يشـير بـأن الأسـباب تعمـل محليـا وليـس عـن بُعـد. إنـه يثـير مشـاكل علميـة وفلسـفية جديـدة. لكـن هـذا **لا يعنـي عـلى الإطـلاق** القـول بعدم وجـود علاقـة سـببية، وبـأن المراقـب هـو الـذي يجلـب الواقـع إلى الوجـود!

تظهـر إصـدارات *New Scientist* خـلال السـنوات القليلـة الماضيـة كيـف يتـم ضـخ هـراء المثاليـة الذاتيـة في الوعـي العـام، بالنظـر إلى وزن المجلـة العلميـة الشـهيرة المحترمـة. يُظهـر هـذا الهجـوم الرجعـي بالكامـل عـلى المقدمـات الأساسـية للعلـم الطريـق المسـدود الـذي وصلـه الفكـر البرجـوازي، الـذي ينحـدر إلى التصـوف والخرافـات. وعـلاوة عـلى ذلـك فـإن هـذه الأفـكار تعتـبر مفيـدة للطبقـة السـائدة، حيـث يمكـن اسـتخدامها لتخفيـف حـدة الـصراع الطبقـي. إذ بعـد كل شيء، إذا كان الواقـع مجـرد مسـألة ذاتيـة، فكيـف إذن ولمـاذا سنسـعى لتغيـيره؟ مـن واجـب الماركسـيين محاربـة هـذه الزبالـة الرجعيـة، والدفـاع عـن الفكـر العلمـي.

تقـوم مجلـة New Scientist، منـذ أكـثر مـن سـتة عقـود، بإيصـال الأفـكار العلميـة المعقـدة إلى عامـة النـاس بطريقـة يسـهل فهمهـا. أواه! كيـف انحـط العمالقـة! فـإلى جانـب الإهانـة التـي تعرضَـتْ لهـا بشرائهـا، في عـام 2021، مـن طـرف شركـة Daily Mail General Trust (التـي هـي المنتـج البريطـاني الأول للقمامـة اليمينيـة)، فقـد أدارت هـذه المجلـة، التـي كانـت مرموقـة ذات يـوم، ظهرهـا بشـكل متزايـد، ليـس فقـط للصحافـة العلميـة عاليـة الجـودة، بـل **وللواقـع نفسـه**.

إن مـأزق الرأسـمالية يقـود الطبقة السـائدة إلى الترويـج للتصـوف والأنَوَيّـة (Solipsism)، أي الفكـرة القائلـة بأنـه لا وجـود لـشيء غـير الأنـا، أو لا وجـود حقيقـي إلا للحقيقـة التـي في ذهنـي. وهـذا لـه تأثـير مدمـر عـلى العلـم والفلسـفة عـلى جميـع المسـتويات. وبـدلا مـن أن تعمـل المجـلات مثـل New Scientist عـلى تثقيـف القـراء بخصـوص أحـدث الاختراقـات الملهمـة التـي تحققهـا المعرفـة البشريـة، نجدهـا تمـلأ صفحاتهـا بالهـراء المثـالي.

مـن المفارقـات المثـيرة للسـخرية هـو أن هـذه المفاهيـم **ليسـت جديـدة ولا علميـة**. إنهـا، في الواقـع، تـردد في الغالـب أفـكارا قديمـة، مثـل تلـك الخاصـة بأسـقف القـرن الثامـن عـشر الرجعـي، جـورج بـيركلي، الـذي كان عـدوا صريحـا للعلـم، وعـدوا بشـكل خـاص لمعـاصره، السـير إسـحاق نيوتـن.

نحـن لا نزعـم أن غالبيـة العلـماء يشـاركون هـذه الآراء. لكنـه لا يمكـن إنـكار أن *New Scientist* تقـدم منصـة واسـعة للمثاليـة الذاتيـة، كـما يمكننـا أن نـرى في نشرهـا لثـلاث مقـالات مميـزة بـين عامـي 2020 و2022، اثنتـان منهـا ظهرتـا في الصفحـة الأولى. هـذا يعكـس النزعـة الذاتويـة داخـل المؤسسـة العلميـة، والتـي يتـم إيصالهـا مـن خـلال الصحـف الشـعبية إلى الجمهـور الأوسـع، مـن أجـل غايـات شـائنة.

"الحجة ضد الواقع"

لـكي يتقـدم العلـم لا بـد لـه أن ينطلـق مـن مبـدأ أن هنـاك حقيقـة موضوعيـة واحـدة موجـودة خارجنـا، يمكـن تعميـق فهمهـا لهـا مـن خـلال الملاحظـة والتجربـة. لكـن وبـدلا مـن ذلـك صـدر مقـال لمجلـة New Scientist، في فبرايـر 2020، بالعنـوان الرئيـسي التـالي: "هـل يمكننـا إدراك الواقـع؟"، اسـتهل بإشـارة تنضـح بعـدم اليقـين الوجـودي:

«أنـا لا أعـرف عنـك، لكنـي أشـعر أن لـدي تصـورا جيـدا جـدا للواقـع. داخـل رأسي صـورة حيـة للعـالم مـن حـولي، مليئـة بالأصـوات والروائـح والألـوان والأشـياء. **لـذا فإنـه مـن المقلـق أن نكتشـف أن كل هـذا قـد يكـون مجـرد اختـلاق**»[2] (خـط التشـديد مـن عندنـا).

هـذا مربـك حقـا! لكـن مـا هـو سـبب ضعـف ثقـة المؤلـف المفاجئـة في حواسـه؟ إنـه يستشـهد بدونالـد هوفـمان، عـالم النفـس في جامعـة كاليفورنيـا، ومؤلـف كتـاب بعنـوان متواضـع هـو: الحجـة ضـد الواقـع. يطـرح فيـه هوفـمان مـا يسـمى بـ "نظريـة الواجهـة البينيـة" ("Interface theory") لـلإدراك، حيـث يقـول إن أنظمتنـا الحسـية تكثـف تعقيـد العـالم الحقيقـي في "واجهـة مسـتخدم بينيـة" ("user inference") مبسـطة – إذ تصفّـي المعلومـات الزائـدة عـن الحاجـة لتمكننـا مـن الفهـم.[3]

حقـا مـن المؤكـد أن أدمغتنـا بارعـة في التعـرف عـلى الأنمـاط وتعمـل بشـكل غـير واع

بتصفية الكثير من التجارب الحسية. لكن بالنسبة للبروفيسور هوفمان، فإن "الواجهة البينية" هي كل ما هو موجود. وما نفكر فيه على أنه واقع ليس سوى "بنية من البيانات المجردة لشيء لا يوجد في المكان والزمان"، وبالتالي فإنه «إذا كان لديك ذلك المفهوم القائل بأن الواقع هو شيء مختلف بطبيعته عن الذهن، فإنه يصبح من المفارقة الاعتقاد بأنه في إمكاننا فهم الواقع».[4]

هذه "المفارقة" مطابقة للحجة التي اقترحها، منذ زمن بعيد، إيمانويل كانط الذي، وعلى الرغم من مساهماته العديدة المهمة في العلم والفلسفة، كان مثاليا وبالتالي كانت له حدوده. دافع كانط على أنه لا يمكننا أن نعرف إلا مظاهر الواقع، اعتمادا على تصوراتنا الحسية، وليس "الشيء في ذاته". وبالطريقة نفسها التي يجادل بها البروفيسور هوفمان بأن العقل يفرض "بنية بيانات"، جادل كانط بأن العقل يفرض بشكل مسبق مقولات (Categories) فكرية مجردة لفهم بيانات إحساسنا. إلا أنه وفي حين أن هذه المقولات قد تساعدنا في ترتيب أفكارنا، حسب كانط، فإن جوهر الواقع نفسه غير معروف.[5]

لكن، وكما يشرح فريدريك إنجلز في لودفيج فيورباخ ونهاية الفلسفة الألمانية الكلاسيكية، فإن الممارسة والتطور وتاريخ العلم هم الدليل النهائي على وجود العالم الموضوعي. وأعطى مثالا للتطورات في علم البيولوجيا والكيمياء، اللذان سمحا للعلماء بإعادة إنتاج الظواهر الطبيعية، بما في ذلك المواد الكيميائية التي تنتجها داخليا النباتات والحيوانات. وهكذا تحولت، بفضل مسيرة العلم والمعرفة البشرية، من "الأشياء في ذاتها" والتي لا يمكن فهمها، إلى "أشياء لنا".[6]

لكن ولكي نعطي لكانط حقه، نقول إنه كان عالما وفيلسوفا من الطراز الرفيع. إلا أن البروفيسور هوفمان إذ يستند إلى جانبه الأضعف، يقوم بإلغاء قرون من التقدم بضربة واحدة. ثم يأخذ المؤلف حجج هوفمان إلى خلاصتها النهائية، متسائلا عما إذا كان "الناس على الأقل يتشاركون في نفس التصور المشوه؟". يقترح المؤلف أن هذا يبدو وكأنه افتراض معقول. إذ بعد كل شيء «لدى البشر نفس العقول والأنظمة الحسية تقريبا، وعندما نتحدث عن تجاربنا الواعية، يبدو أننا جميعا متفقون»[7]

لكن المؤلف ينبه إلى أنه: «لا يمكننا أن نكون متأكدين. والطريقة الوحيدة التي تعرف بها وجودك ككائن واع هي تجربة وعيك الخاص. أما طبيعة -وحتى وجود- وعي الآخرين فهي كتاب مغلق. لأن كل ما تعرفه هو أن كل شخص آخر هو زومبي».[8]

عند قراءة هذه الأشياء، يبدو للمرء بالتأكيد أن دماغه يستهلك ببطء من قبل الموتى الأحياء. إن المؤلف يقوم، سواء بوعي أم بغير وعي، بإحياء حجة قديمة، كان أبرز مؤيديها في تاريخ الفلسفة هو الأسقف الرجعي بيركلي. باستثناء أن بيركلي كان على الأقل نزيها في توضيح عداوته للثورة العلمية في القرن الثامن عشر، وللمادية على وجه التحديد.

أدرك بيركلي أن المادية تحتوي على نواة الإلحاد، وقال إن المعرفة والحقيقة تنبعان من الدراسة والتجربة في العالم المادي، وليس من الله. كان هجومه على المادية مبنيا على خدعة. اعتبرت فلسفة بيركلي المثالية الذاتية أنه إذا كان المرء لا يعرف العالم إلا من خلال الحواس، فمن المستحيل أن يكون متأكدا من أي شيء **سوى** أحاسيسه. ولذلك فإن ما يسمى بالعالم الحقيقي والطبيعة، وكل كائن بشري آخر، موجود فقط بقدر ما يدركه العقل البشري. وكتب في "مبادئ المعرفة البشرية":

> «يسود بين الناس بشكل غريب حقا رأي يقول إن المنازل والجبال والأنهار، وباختصار كل الأشياء المحسوسة، لديها وجود طبيعي أو حقيقي، يختلف عن إدراكها من خلال الفكر. لكن مهما كان كبيرا حجم التأكيد والإذعان لهذا المبدأ في العالم، فإن كل من يجد في نفسه القدرة على وضعه موضع تساؤل قد يدرك، إذا لم أخطئ، أنه ينطوي على تناقض واضح. إذ ليست الأشياء المذكورة أعلاه سوى أشياء ندركها بالحس، وما الذي ندركه باستثناء أفكارنا أو أحاسيسنا؛ أليس من المقزز بوضوح القول بأن كل واحد من تلك الأشياء، أو كل توليفة منها، يمكن أن توجد بدون أن يتم تصورها؟»[9]

هذا هو نفس المنطق الذي يقدمه هوفمان. لكن وبينما كان بيركلي يهاجم المادية والعلوم بشكل صريح، فإن "نظرية" هوفمان يتم نشرها بحفاوة في **مجلة علمية مشهورة عالميا**! إنه لدليل على انحطاط الرأسمالية وعدم قدرتها على تطوير الفكر البشري، أن الزبالة المثالية البالية يتم إحياؤها اليوم باعتبارها "آخر صيحة للعلم الحديث".

الاستنتاج المنطقي لهذه الأفكار هو الأنوية (Solipsism): أي وجهة النظر القائلة بأنني أنا وحدي الموجود. وتعكس طريقة التفكير هذه العقلية البرجوازية والبرجوازية الصغيرة، الفردانية، حيث تكون الذات هي الحقيقة النهائية والوحيدة. هذا المنظور الأنوي هو في أفضل الأحوال لا قيمة له، لكنه في أسوء الأحوال يرفض بشكل قاطع فكرة المعرفة العلمية ذاتها. إذ ما هو الهدف من محاولة الكشف عن أسرار الكون عندما لا نستطيع أبدا معرفة ما إذا كانت صحيحة؟

ناضلت الطبقة البرجوازية، عندما كانت في مرحلة صعودها الثوري الظافر، ضد الخرافات الدينية تحت راية العلم والعقل والتقدم. إن وصول الفكر البرجوازي إلى هذا المستنقع الذي وصل إليه اليوم، دليل على مدى انحطاطها. سنعود إلى البروفيسور هوفمان قريبا، لكن دعونا أولا نلقي نظرة سريعة على بعض الأعداد الأخرى من مجلة العلوم الشعبية التي كانت تحظى باحترام كبير.

ميكانيكا الكم

ذلك المقال لا يمثل استثناء في مجلة *New Scientist*. لقد ظهرت النظرة المثالية الذاتية مرارا على صفحات المجلة خلال السنوات الأخيرة. خاصة عندما يتعلق الأمر بموضوع نظرية الكم.

في الصفحة الأولى لعدد نوفمبر 2021 من New Scientist، نجد العنوان التالي: "هل يوجد شيء عندما لا نبحث؟ الاقتراب من الطبيعة الحقيقية للواقع الكمومي". إذا قاوم القارئ إغراء التوقف عن النظر إلى المجلة، وإبعادها من عالم الواقع إلى سلة المهملات، فسوف يجد المقالة المعنية، والتي

عنوانها: ("التجربة الكمومية التي يمكن أن تثبت عدم وجود الواقع")، تناقش الحد الفاصل بين عوالم نيوتن الكلاسيكية وميكانيكا الكم.

الخلاصة هي أن الميكانيكا الكلاسيكية صالحة على مستوى الحياة اليومية: فالأجسام لها مواقع واضحة وخصائص قابلة للقياس إلى حد ما، مثل الزخم والطاقة وما إلى ذلك. أما في المقياس الدقيق لميكانيكا الكم، فيصبح الوضع أكثر تعقيدا. تعبر الأجسام تحت الذرية (Subatomic) عن خصائص كل من الجسيمات، التي لها مواقع منفصلة؛ والموجات التي هي مستمرة في الفضاء. وتعتبر الكيفية التي يتفاعل بها هذان المجالان مصدرا رئيسيا للنقاش في الفيزياء الأساسية.

والطريقة الأكثر شيوعا للتغلب على هذا التناقض الظاهري هي ما يسمى بتفسير كوبنهاغن، الذي طوره نيلز بور وفيرنر هايزنبرغ في الثلاثينيات. لقد قالوا بأن الجسيم الكمومي لا يوجد في حالة ثابتة إلا عندما تتم ملاحظته. أما عندما لا ننظر إليه، فهو يكون موجودا فقط كموجة احتمالية. عندها توصلا إلى استنتاج مفاده أن النظر إلى شيء ما يؤدي إلى وجوده على هذه الحالة أو تلك. هذه هي المثالية الخالصة: الفكرة القائلة بأن الفكر يحدد العالم المادي.

يستشهد مقال *New Scientist* باعتراض ألبرت أينشتاين البارع على التفسيرات

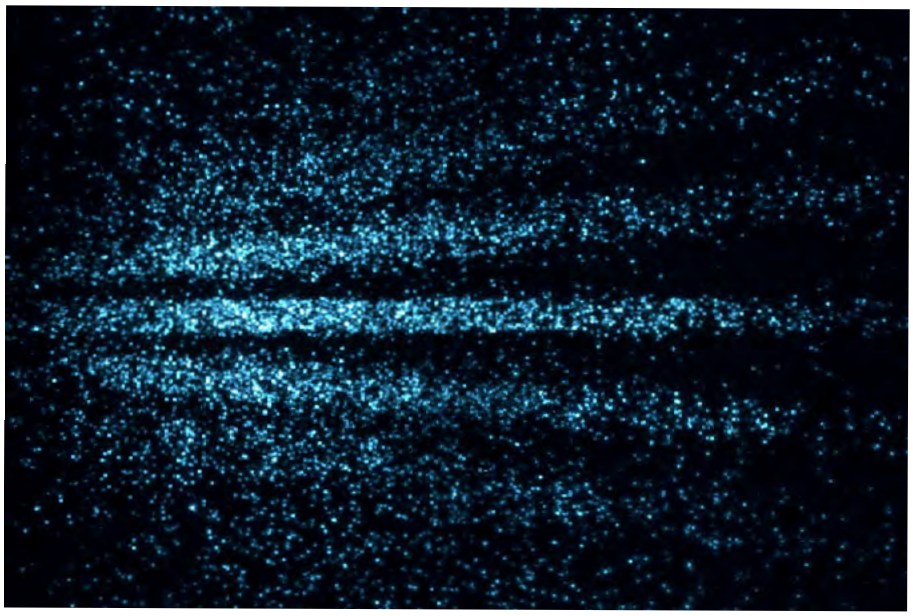

المثالية لميكانيكا الكم، حين يقول: «أحب أن أعتقد أن القمر موجود حتى لو لم أنظر إليه». آه، لكن المؤلف يضيف أن: «فئة جديدة من التجارب تضع قناعة أينشتاين على المحك، وتبحث في ما إذا كانت غرابة الكم تمتد من العالم الصغير للكواركات والذرات والكيوبتات، إلى العالم اليومي للطاولات والكراسي، حسنا والأقمار كذلك». ويدعي المؤلف أن هذه التجارب «قد تسحب البساط من تحت أحد أكثر معتقداتنا رسوخا، أي الفكرة القائلة بأن الأشياء موجودة بغض النظر عما إذا كنا ننظر إليها».[10]

وتمضي المقالة لتشرح أن العلماء في مختلف المؤسسات المرموقة، في أكسفورد وفيينا ولندن، كانوا يحاولون مراقبة السلوك الكمومي في الأجسام الكبيرة نسبيا، على الرغم من أنها ما تزال مجرد بلورات نانوية صغيرة. وتقول الحجة إنه إذا تمكنوا من تحقيق ذلك، فما الذي يمنعهم من تعميم استنتاجاتهم على أشياء كبيرة مثل القمر؟ كما لخص ذلك جوناثان هاليويل، الباحث في إمبريال كوليدج لندن عندما قال: «إذا تم انتهاك الواقعية الماكروسكوبية، **فلا يمكنك افتراض وجود القمر**» (خط التشديد من عندنا).[11]

لكن ولسوء الحظ يمكن حتى لفوتون ضال أن يعطل هذه التجارب، ويجبر الأشياء المرصودة على التصرف بشكل كلاسيكي (وهي المسألة التي تعرف باسم فك الارتباط (Decoherence)). لذلك يبدو أن هيئة المحلفين ما زالت على سطح القمر! وبينما ما تزال هناك العديد من المشكلات التي لم يتم حلها في الفيزياء الأساسية، فإن هراء المثاليين لا يقربنا ولو خطوة واحدة من حلها. لكننا في الوقت الحالي يمكننا

توصل [نيلز بور وفيرنر هايزنبرغ] إلى استنتاج مفاده أن النظر إلى شيء ما يؤدي إلى وجوده على هذه الحالة أو تلك. هذه هي المثالية الخالصة: الفكرة القائلة بأن الفكر يحدد العالم المادي.

Image: Bundesarchiv, Bild 183-R57262 / Unknown author / CC-BY-SA 3.0

فيرنر هايزنبرغ (يمين) ونيلز بور (يسار)

أن نبقى واثقين من أن القمر سيستمر في الوجود بعناد، سواء تحمل محررو *New Scientist* عناء النظر إليه أم لا.

خلق الواقع من خلال الفكر

يشكك الغلاف الأمامي لعدد فبراير 2022 من مجلة New Scientist في وجود الواقع. حيث نجد العبارة التالية مكتوبة عليه "هل نصنع الزمكان؟". مرة أخرى نجد أنفسنا في عالم ميكانيكا الكم. ومرة أخرى تؤكد المقالة تفسير كوبنهاغن، حيث تقول: «عندما وصلت نظرية الكم... بدا أنها تظهر أننا من خلال قياسنا للأشياء، نلعب دورا في تحديد خصائصها». ونتيجة لذلك، يتابع المؤلف: «يتساءل العديد من الفيزيائيين هل توجد أصلا حقيقة موضوعية واحدة، يشترك فيها جميع المراقبين».[12]

لكن لا تخافوا! فالمقال يصل إلى طمأنتنا بأن عددا من العلماء الآن يعتقدون أن الواقع موجود بالفعل -**لأننا نجعله يوجد بأنفسنا**. يستشهد المؤلف بالفيزيائيين: فلافيو ميركاتي من جامعة بورغوس بإسبانيا، وجيوفاني أميلينو كاميليا، من جامعة نابولي فيديريكو II، اللذان "يشير بحثهما إلى نتيجة مذهلة"، وهي:

> «عندما يكون الناس بصدد تبادل المعلومات الكمومية، يتعاونون لبناء واقعهم المشترك. وهذا يعني أننا إذا نظرنا ببساطة إلى المكان والزمان من منظور واحد، فإننا لن نفقد كامل جماله فحسب، بل قد لا يكون هناك أي واقع مشترك أعمق... لا يتشارك شخصان نفس الواقع إلا عندما يتفاعلان، **لأن التواصل نفسه هو الذي يخلقه**». (خط التشديد من عندنا).[13]

نعود مرة أخرى إلى الاستنتاج المثالي الذي توصل إليه بوهر وهايزنبرغ والقائل بأن وجود مراقب واعٍ هو الذي يصنع الواقع. بل وأكثر من ذلك، وحده "التواصل" بين المراقبين ما يجعل حقائقهم الذاتية المنفصلة حقيقة "مشتركة". ويفترض أننا لا نعرف بوجود شخص آخر للتواصل معه، في المقام الأول، إلا من خلال نوع من "التخاطر الكمومي".

هذا يقلب المفهوم العلمي للكون رأسا على عقب. ليس الوعي أكثر من نتاج مادة منظمة بطريقة معينة. إنه تتويج لمليارات السنين من التطور الذي شهد تشكيل مجرتنا ونظامنا الشمسي وكوكبنا. وأخيرا، نشأت الظروف لتكون المادة العضوية والحياة، وفي النهاية حياة حيوان قادر على التفكير والتواصل. من كان هناك "لرصد" الأرض عندما كانت مجرد كرة ساخنة من الصهارة؟

أشاد مقال لـ New Scientist، صدر في فبراير 2020، بجون ويلر، من جامعة برينستون، باعتباره من "أبرز المؤيدين" لوجهة النظر المثالية هذه حول نظرية الكم، حيث كتب: «ليس هناك ما يثير الدهشة في ميكانيكا الكم أكثر من كونها تمكن الفرد من التفكير بجدية في أن الكون ليس شيئا دون عملية الرصد».[14] وهذا يذكرنا بقصيدة قديمة، كتبها اللاهوتي الكاثوليكي رونالد أربوثنوت نوكس، والتي تقول:

> «كان هناك ذات مرة رجل قال:
> "لا بد أن الله سيستغرب
> إذا وجد أن تلك الشجرة
> تستمر في الوجود
> عندما لا يكون هناك أحد في الباحة"»[15]

يطرح هذا، بالطبع، السؤال التالي: ما نوع الوعي الذي نتحدث عنه؟ هل ستكون ملاحظات ذبابة فاكهة مارة كافية؟ وأحد الحلول المذهلة لما يسمى بمشكلة المراقب هذه، والذي تم طرحه في مقالة فبراير 2020، هو أنه «حتى الأشياء الجامدة قد تمتلك شكلا بدائيا من الوعي. في الواقع، قد يكون الوعي نفسه خاصية أساسية للمادة. وإذا كان الأمر كذلك، فإنه لا يوجد شيء اسمه كون "ما قبل الوعي"»[16]

هذا القول يشبه رد بيركلي على سؤال يفضح العيب في مثاليته الذاتية، أي السؤال حول: كيف نعرف أن الله ليس هو أيضا من نسج حواسنا؟ وقد تغلب الأسقف على هذا اللغز الصغير بالقول إن الإله كلي العلم هو مراقب أسمى:

> «سيدي العزيز، إن دهشتك غريبة.
> فأنا دائما في الباحة.
> ولهذا السبب فإن الشجرة
> سوف تستمر في الوجود
> لأنها تلاحظ من قبل
> إلهك المخلص»[17]

والفكرة المقدمة في New Scientist تشبهها إلى حد كبير، الاختلاف الوحيد هو أنه بدل إله كلي العلم يراقب الواقع بوعي، فإن الوعي هو خاصية عامة للمادة نفسها. فكل شيء، بدءا من الجبال، إلى صناديق البريد، إلى لعب الأطفال كائنات واعية، وبالتالي فإن الكون يراقب نفسه باستمرار، ويخلق نفسه باستمرار.

لكن إذا كان الكون نفسه مراقبا واعيا بالفعل، فلماذا تتسبب ملاحظة العلماء للجسيم الكمومي في انهيار "وظيفته الموجية"؟ أكيد أنه من خلال جعل الكون كله واعيا وجعله يراقب بشكل دائم كل جزء آخر من الكون، فسيكون إذن لكل جسيم موقع محدد في جميع الأوقات؟ لن يوجد أبدا على أنه مجرد "موجة احتمالية". أو بعبارة أخرى، ما الحاجة إلى المراقب الذي يقترحه تفسير كوبنهاغن؟ هذه الأفكار تفشل حقا في حل أي شيء. وبدلا من ذلك، يجب أن نستنتج أن ما يقصدونه بالوعي في الواقع هو: الله، أي أن بيركلي كان على حق. وهكذا نكون قد قمنا بإدخال الدين من الباب الخلفي.

والاقتراح الأكثر غرابة هو الذي قدمه العالم والفيلسوف، نيك بوستروم، وتم نشره في مقال New Scientist في فبراير 2020، والمستوحى من محنة نيو وترينيتي ومورفوس وبقية فريق The Matrix. حيث يقترح أننا نعيش جميعا في محاكاة حاسوبية عملاقة، تحت المراقبة المستمرة من قبل علماء في العالم "الحقيقي". وإذا كنت تعتقد أنه يمزح، **فإن لديه اقتراحات حول كيفية اختبار هذه النظرية**، وقد أعادت New Scientist كتابتها كلها:

> «تتمثل إحدى الأفكار في النظر إلى سلوك الأشعة الكونية ذات الطاقة الأعلى، والتي يقول بعض الفيزيائيين إنه من المستحيل

محاكاتها بـ 100٪ من الدقة وفقا للقوانين "الحقيقية" للفيزياء. يمكن للانحرافات في سلوكها أن تكون دليلا على أن الواقع ليس حقيقيا».[18]

لكن المقال يحذر من أنه يجب علينا أن نكون حذرين مع هذا الخط من التحقيق، لأنه «إذا اكتشف القائمون بالمحاكاة أننا نعرف، فقد يطفؤوننا».[19] بعد قراءة هذه السطور يكاد المرء يتمنى لو أنهم يقومون فعلا بذلك. أو أنهم على الأقل يقومون بإعادة تشغيل الجهاز بشكل كامل لتخليصنا من هذه "النظريات" المجنونة.

وحتى لو ثبت أن بوستروم على حق، فإنه ما كان ليقربنا ولو شبرا واحدا من الواقع. هل القائمون على المحاكاة في واقعهم المحاكي خالدون إلى ما لا نهاية؟ هذه الفكرة بالكاد تستحق التفنيد. إنها تنتمي إلى فئة الخيال العلمي، بل والخيال العلمي من النوع الرديء.

إعادة إحياء المثالية

قد تعترض على أن مثل هذا الهراء من السهل تفنيده، وأنه مثير للسخرية، وأنه لا يمثل آراء معظم العلماء، وهو مجرد خرافات تافهة يتم استخدامها لبيع المزيد من نسخ المجلة. لكن هناك أجندة أكثر مكرا وراء ذلك. تعرض نفس المقالة وجهة نظر ماركوس مولر، من جامعة فيينا، بأن: «العالم ليس هو العنصر الجوهري بل المعلومات وقانون الاحتمالات، هو ما يعطي المراقبين انطباعا عن عالم مادي بقوانين طبيعية متسقة». وتمضي *New Scientist* بعد ذلك إلى الاعتراف بما يحدث بالفعل هنا، من خلال الاقتباس من فيلسوف فيزياء الكم بجامعة تشابمان في كاليفورنيا، كيلفن ماكوين، حيث يقول:

«اقتراح مولر مثير جدا للاهتمام. **إنه يهدف بشكل فعلي إلى إحياء فكرة قديمة في الفلسفة تُعرف بالمثالية، والتي وفقا لها لا تنتج الخبرات عن واقع مادي موجود مسبقا، بل إنها في الواقع تؤلف كل الواقع**»(خط التشديد من عندنا).[20]

ها أنت ذا! بالبند العريض. يهدف هؤلاء "العلماء" و"الفلاسفة" إلى إعادة إحياء جثة المثالية النتنة، و*New Scientist* مشاركة في جريمة توفير المنصة لهم. إن هذه الأفكار الرجعية تماما هي إهانة للنضال البطولي الذي خاضه رواد الثورة العلمية البرجوازية ضد الظلامية الدينية.

يمكن معرفة الحقيقة الموضوعية، ولا توجد أي حدود لفهمنا لها. يجب أن تكون مهمة العلم هي تحسين فهمنا للواقع باستمرار، لتحريرنا من الجهل والخرافات.

لا تتخيلوا أن الدكتور مولر غير مدرك لحقيقة أن عمله يستخدم لإعادة إحياء المثالية. إذ كما اتضح، فهو، والبروفيسور هوفمان المذكور أعلاه، كلاهما عضوان في "المجلس الاستشاري الأكاديمي" لمؤسسة إيسينسيا (*Essentia Foundation*). ما هي مؤسسة إيسينسيا؟ إنها مؤسسة فكرية أسسها المليونير، فريد ماتسر، وهو برجوازي لا يرغب إلا في إنقاذ أرواحنا. تحدد مؤسسة إيسينسيا هدفها بوضوح تام. إنها ترغب في تحطيم المادية وإرساء المثالية في قلب العلم الحديث، حيث تكتب:

«نحن نعيش في ظل ميتافيزيقيا مادية: كل ما يفترض وجوده هو المادة، وهي كيان مجرد يُعرّف من الناحية المفاهيمية بأنه خارج الوعي ومستقل عن الوعي. وهذه الميتافيزيقا غالبا ما يتم الخلط بينها وبين العلم نفسه... أصبح التأييد الثقافي السائد للمادية الميتافيزيقية راسخا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. لكنها منذ ذلك الحين استمدت قوتها أساسا من العادة الفكرية...

ومع ذلك فإن الانتشار الثقافي للمادية الميتافيزيقية له آثار لا تعد ولا تحصى على المستويين الفردي والاجتماعي: إنها تؤثر على إحساسنا بالمعنى والهدف، وأنظمة القيم لدينا، وفهمنا للصحة والمرض والموت، بالإضافة إلى الطريقة التي نتعامل بها مع الآخرين ومع الكوكب، بل وحتى مع أنفسنا.

مؤسسة إيسينسيا تساءل المادية الميتافيزيقية وتدافع عن معقولية المثالية من خلال الاستفادة من نفس القيم المعرفية التي تجسدها ثقافتنا اليوم... إننا نظهر أنه إذا تم تطبيق هذه القيم بشكل موضوعي، فإنها ستقود مباشرة إلى المثالية، بينما تتعارض مع المادية».[21]

ليس هؤلاء سوى الأنصار الأكثر صراحة للثورة المضادة الفلسفية، ومن الواضح أن لديهم خطا ساخنا مباشرا مع مكاتب التحرير في بعض أكبر المجلات العلمية الشعبية في العالم! لقد لعبت البرجوازية، في وقت من الأوقات، دورا ثوريا. لقد طورت الفكر البشري وأنجزت ثورة علمية كان جوهرها المنهج المادي. لكن ممثليها المعاصرين يحاولون نزع القلب المادي من العلم.

خلال مرحلة صعود الرأسمالية وجه تقدم العلم والفلسفة المادية ضربة قوية لجميع أنواع الذاتية والمثالية، كما يعترف بذلك السادة والسيدات في مؤسسة إيسينسيا.

لكـن الطبقـة الرأسـمالية اليـوم صـارت معاديـة للماديـة الفلسـفية، ويرجـع ذلـك جزئيـا إلى ارتباطهـا [الماديـة] بالماركسـية. لكـن أيضـا لأن إنـكار الوجـود الموضوعـي للواقـع، ينتـج عنـه أيضـا إنـكار حقيقـة الاسـتغلال والقمـع والـصراع الطبقـي، فضـلا عـن إمكانيـة التقـدم أو إحـداث التغيـير. وبالتـالي فـإن المثاليـة الذاتيـة مفيـدة سياسـيا للطبقـة السـائدة.

لكـن هـذه الأفكار ليسـت سـائدة بـين غالبية العلـماء العاديـين. كـما أنهـا لم توقـف التقـدم العلمـي والتطـور، الـذي ينطلـق مـن افـتراض أن الواقـع الموضوعـي موجـود ويمكـن دراسـته. ومـع ذلـك فـإن هنـاك نزعـة ذاتيـة قويـة في قمـم المؤسسـات العلميـة، والتـي، بتوافـق مـع مصالـح الطبقـة السـائدة، تبـشر بـأن الخـلاص يكمـن في التأمـل الداخـلي (Introspection). ويتـم نقـل هـذه المفاهيـم الرجعيـة والترويـج لهـا مـن خـلال الصحافـة العلميـة إلى المجتمـع العلمـي الأوسـع ومـا وراءه.

نحـن نرفـض كل هـذه القمامـة الصوفيـة (Mystical) التـي تخفـي نفسـها وراء عبـارات تبـدو علميـة. نؤكـد بوضـوح أن الوعـي البـشري هـو نتـاج لمـادة منظمـة بطريقـة معينـة، وأن حواسـنا تتيـح لنـا الوصـول إلى واقـع موضوعـي موجـود خـارج ذواتنـا. وعـلى حـد تعبـير لينـين فـإن:

«كل المعرفـة تـأتي مـن الخـبرة، مـن الإحسـاس، مـن الإدراك. هـذا صحيـح. لكـن السـؤال الـذي يطـرح نفسـه هـو: هـل **الواقـع الموضوعـي** "ينتمـي إلى ميـدان الإدراك"، أي هـل هـو مصـدر الإدراك؟ إذا أجبـت بنعـم، فأنـت مـادي. أمـا إذا أجبـت بالنفـي، فأنـت غـير منسـجم وسـتصل حتـما إلى الذاتيـة، أو اللاأدريـة، بغـض النظـر عـما إذا كنـت تنكـر معرفـة الـشيء في ذاتـه، أو موضوعيـة الزمـان والمـكان والسـببية (مـع كانـط)، أو مـا إذا كنـت لا تسـمح حتـى بفكـرة وجـود الـشيء في ذاتـه (مـع هيـوم). في هـذه الحالـة سـوف يكمـن التناقـض بـين مذهبـك التجريبـي وفلسـفتك بصـدد التجربـة، في حقيقـة أنـك تنكـر المحتـوى الموضوعـي للتجربـة، والحقيقـة الموضوعيـة للمعرفـة التجريبيـة».[22]

يمكـن معرفـة الحقيقـة الموضوعيـة، ولا توجـد أي حـدود لفهمنـا لهـا. يجـب أن تكـون مهمـة العلـم هـي تحسـين فهمنـا للواقـع باسـتمرار، لتحريرنـا مـن الجهـل والخرافـات.

إن صعـود الأفـكار الصوفيـة والذاتيـة اليـوم يعكـس المـأزق النهـائي الـذي وصلـه النظـام الرأسـمالي والطبقـة الرأسـمالية نفسـها. ينخـرط أكـثر ممثـلي النظـام القائـم حماسـة في شـن هجـوم واع عـلى الماديـة. ويجـب عـلى الماركسـيين، وجميـع الماديـين الحازمـين، وجميـع المدافعـين عـن العلـم، أن يشـنوا هجومـا مضـادا واعيـا بنفـس القـدر. نحـن، وعـلى عكـس الطبقـة السـائدة ومحـرري مجلـة *New Scien-tist*، يجـب ألا نهـرب مـن الواقـع، بـل يجـب علينـا أن نكافـح مـن أجـل تغيـيره.

جو أتارد

14 أكتوبر 2022

مراجع وهوامش:

1: حقيقـي محليـا (Locally real): تعنـي كلمـة "حقيقـي" هنـا أن الأشـياء لهـا خصائـص محددة مسـتقلة عن الملاحظة. بينما تعني كلمـة "محلي" أن الأشـياء لا يمكـن أن تتأثر إلا بمحيطهـا وأن أي تأثير لا يمكـن أن ينتقـل أسرع من الضـوء. المترجم.

2: Donna Lu, Alison George, Daniel Cossins and Layal Liverpool, "Can we perceive reality?," New Scientist, February 1, 2020, 39.

3: Donald Holffman, The Case Against Reality: How Evolution Hid the Truth from Our Eyes (London: Allen Lane, 2019), cited in Lu, George, Cossins and Liverpool, 39.

4: Ibid, 39.

5: Immanuel Kant, Prolegomena to Any Future Metaphysics: Second Edition, trans. Paul Carus (Indianapolis: Hackett Publishing Company, 1977), 53.

6: Frederick Engels, Ludwig Feuerbach and the End of Classical German Philosophy, in Karl Marx Frederick Engels Collected Works Vol. 26 Engels 1882-1889 (London: Lawrence & Wishart, 1990), 367-8.

7: Lu, George, Cossins and Liverpool, 40

8: Ibid.

9: Quoted in George S. Pappas, Berkeley's Thought, (London: Cornell University Press, 2000), 118.

10: Thomas Lewton, "The quantum experiment that could prove reality doesn't exist," New Scientist, November 6, 2021,

https://www.newscientist.com/article/mg25233590-800-the-quantum-experiment-that-could-prove-reality-doesnt-exist/#ixzz7OMJMgxYU

11: Ibid.

12: Amanda Gefter, "Quantum Perspective," New Scientist, February 5, 2022, 38

13: Ibid, 41.

14: Lu, George, Cossins and Liverpool, 41.

15: Ronald Knox, "Some Berkeley Limericks," Philosophy 210/310 Early Modern Philosophy, http://faculty.otterbein.edu/AMills/EarlyModern/brklim.htm

16: Lu, George, Cossins and Liverpool, 42.

17: Unknown, "Some Berkeley Limericks."

18: Lu, George, Cossins and Liverpool, 42-3.

19: Ibid, 43.

20: Ibid, 42.

21: "The challenge", Essentia Foundation, https://www.essentiafoundation.org/about/.

22: V. I. Lenin, Materialism and Empirio-Criticism (London: Wellred Books, 2021), 99.

دون كيشوت، وإسبانيا في عصر سرفانتس

لوحة دون كيشوت لبابلو بيكاسو

كتب آلان وودز هذا المقال عام 2005، بمناسبة الذكرى السنوية الـ400 لنشر أول طبعة لرواية "دون كيشوت"، التي تعتبر أعظم تحفة في الأدب الإسباني. في ذلك الوقت، أوضح آلان، في مقدمة هذا المقال، أن «الطبقة العاملة، الطبقة التي لديها مصلحة كبيرة في النضال من أجل الدفاع عن الثقافة، يجب عليها أن تحتفي بحماس بهذه الذكرى. كانت هذه أول رواية حديثة عظيمة، مكتوبة بلغة يمكن أن يفهمها الرجال والنساء العاديون. لقد كانت أحد الكتب المفضلة لدى ماركس، والتي كثيرا ما كان يقرأها لأطفاله. إن النضال من أجل الاشتراكية لا ينفصل عن النضال من أجل الأفكار والثقافة». ولذلك فنحن فخورون بإعادة نشر هذا التحليل لرواية دون كيشوت، والعصر الذي كُتبت فيه، من وجهة نظر المادية التاريخية.

«أينما ظفرت البرجوازية بالسلطة حطمت كل العلاقات الإقطاعية البطريركية الشاعرية. لقد مزقت بلا رحمة الروابط الإقطاعية التي كانت تربط الإنسان بـ "سادته الطبيعيين"، ولم تُبق على أية رابطة بين الإنسان والإنسان سوى رابطة المصلحة الذاتية البحتة، والإلزام القاسي بـ "الدفع عدا ونقدا".»[1].

«عرفت إسبانيا فترات ازدهار عظيم وتفوق على بقية أوروبا والسيطرة على أمريكا الجنوبية. وقد تغلب التطور الهائل للتجارة المحلية والعالمية أكثر فأكثر على التقسيم الإقطاعي للأقاليم وخصوصية الكيانات الوطنية في البلد. ارتبط نمو قوة وأهمية النظام الملكي الإسباني، في تلك القرون، ارتباطا وثيقا بالدور المركزي لرأس المال التجاري، وبالتشكل التدريجي للأمة الإسبانية»[2].

حياة سرفانتس

ميغيل دي سرفانتس (1547-1616) هو الشخصية الأكثر شهرة في الأدب الإسباني. روائي وكاتب مسرحي وشاعر ذو إنتاج أدبي كبير، لكنه يكاد لا يُذكر اليوم تقريبا إلا بكونه مبدع رواية دون كيشوت. وُلِد سرفانتس في ألكالا دي إيناريس، وهي بلدة قريبة من مدريد، لعائلة من النبلاء الصغار. كان والده، رودريغو دي سرفانتس، جراحا، وقد قضى قسما كبيرا من طفولته في الانتقال من مدينة إلى أخرى عندما كان والده يبحث عن عمل. كان والده معروفًا في بلد الوليد وطليطلة وسيغوفيا ومدريد، بسبب ديونه. تسبب له ذلك في دخول السجن في أكثر من مناسبة، وهو المصير الذي كان شائعا جدا في ذلك الوقت.

في الوهلة الأولى كانت حياة سرفانتس مجرد سلسلة طويلة من الإخفاقات: لقد فشل كجندي، وفشل كشاعر وكاتب مسرحي. وكان عليه، في وقت لاحق، أن يجد عملا كجابي ضرائب، لكن حتى هناك حدثت الكارثة. اتهم بالفساد وانتهى به المطاف في السجن. إلا أن تلك التجربة الواسعة في الحياة مكنته من اكتساب معرفة مباشرة بمجموعة كبيرة ومتنوعة من أنواع البشر ونظرة ثاقبة على مجتمع ذلك العصر.

اهتم سرفانتس بالكتابة لأول مرة في عام 1568، عندما كتب بعض الأبيات تكريما للراحلة إيزابيل دي فالوا، الزوجة الثالثة لفيليب الثاني، وذلك بلا شك بهدف الحصول على الحظوة والمال. لكن مسيرته الأدبية انقطعت بسبب الخدمة العسكرية. فبعد دراسته في مدريد (1568-1569)، تحت إشراف المفكر الإنسي، خوان لوبيز دي أويوس، التحق عام 1570 بالجيش الإسباني في إيطاليا. شارك في المعركة البحرية في ليبانتو (1571) على متن السفينة الحربية ماركيزا. حيث أصيب في ذراعه بطلقة بندقية تسببت له في شلل يده اليسرى لبقية حياته. لكن ذلك لم يمنعه من الانضمام إلى الميليشيا لمدة أربع سنوات أخرى.

وبعد أن سئم الحروب، عاد إلى إسبانيا في عام 1575، حيث انطلق مع شقيقه رودريغو على متن السفينة إل سول. لكن السفينة سقطت في يد الأتراك وتم نقله، هو وأخوه، إلى الجزائر كعبدين. أمضى سرفانتس خمس سنوات كعبد، إلى أن

تمكنت عائلته من جمع ما يكفي من المال لدفع فديته. ليطلق سراحه عام 1580.

بعد عودته إلى مدريد، شغل عدة مناصب إدارية مؤقتة، ولم يتحول إلى الكتابة إلا في وقت متأخر نسبيا من حياته. كتب أعمالا مثل: لاغالاتيا (Galatea) وصفقات الجزائر (Los Tratos de Argel)، والتي تناولت حياة العبيد المسيحيين في الجزائر العاصمة وحققت له بعض النجاح. وبصرف النظر عن مسرحياته، كانت أكثر أعماله الشعرية طموحا هي "رحلة إلى [جبل] بارناسو" (Viaje Del Parnaso)، عام 1614. كما كتب العديد من المسرحيات، لم يبق منها سوى اثنتين، وروايات قصيرة. لكن ولا واحدة من تلك الأعمال مكنته من كسب لقمة العيش.

بعد أن تزوج أخيرا، أدرك سرفانتس أن مهنة الأدب لن توفر له ما يكفي لإعالة أسرته. لذلك انتقل إلى إشبيلية، حيث حصل على عمل كمشرف على تموين السفن الحربية الإسبانية. لكن مغامراته لم تتوقف هناك. لقد حقق النجاح لكنه كسب أيضا العديد من الأعداء، ونتيجة لذلك عانى فترات طويلة من السجن. وفي واحدة من نوبات الخمول القسري تلك، بدأ العمل على الكتاب الذي من شأنه أن يكسبه شهرة أبدية. ظهرت الطبعة الأولى من دون كيشوت عام 1605. تمت كتابتها في سجن أرغاماسيلا في لامانشا. وظهر الجزء الثاني منها عام 1615.

لاقى الكتاب نجاحا باهرا، وجلب لمؤلفه شهرة عالمية، لكنه بقي فقيرا. وبين عامي 1596 و1600، عاش بشكل أساسي في إشبيلية. انتقل إلى مدريد، في عام 1606، حيث استقر لبقية حياته. ويوم 22 أبريل 1616 توفي سرفانتس فقيرا في ذلك الشارع بمدريد الذي صار يحمل اسمه الآن، وذلك بعد عام واحد فقط من ظهور الطبعة الثانية من روايته دون كيشوت.

يبدو أن تحفة سرفانتس بدأت حياتها بكونها حكاية كاريكاتورية كوميدية عن قصص الفروسية التي كانت شائعة في ذلك الوقت، إلا أنها اتسعت لتصبح وصفا متنوعا للفترة التي عاش فيها. إنها مليئة بالحياة لأنها تعكس بصدق حياة تلك الفترة، فسيفساء غنية لعالم يمر بمرحلة انتقالية، وغليان من المُثُل والعادات المتضاربة ومجموعة متنوعة لا نهاية لها من الشخصيات. تنتمي معظم شخصياته إلى الطبقات الدنيا. شكلت رواية دون كيشوت انطلاقة جديدة في الأدب: صورة حية للحياة الحقيقية والأخلاق مكتوبة بلغة بسيطة واضحة. وقد أشاد الجمهور القارئ بإدخال الكلام اليومي في عمل أدبي.

وعلى عكس العديد من معاصريه، لم يكن لدى سرفانتس راعي ثري. كان يعتمد حصريا على قرائه. كانت تلك علاقة جديدة تماما بين الكاتب وبين جمهوره. لم يكن بإمكان سرفانتس أن يأكل إلا ببيع كتبه، ولم يكن بإمكانه بيع كتبه إلا بتقديم أدب يصل صداه إلى قلوب وعقول جمهوره. وقد نجح ببراعة في ذلك. فقط كتب قليلة في التاريخ هي التي عكست بأمانة الروح الجديدة التي كانت تتطور في المجتمع. ومن أجل تقدير هذه الحقيقة، من الضروري أن تكون لديك فكرة تقريبية عما كان عليه المجتمع الإسباني في ذلك الوقت.

إسبانيا سرفانتس

«اكتشاف أمريكا، والالتفاف حول رأس الرجاء الصالح، فتح للبرجوازية الصاعدة أرضا جديدة. إن أسواق الهند الشرقية والصين، واستعمار أمريكا، والتجارة مع المستعمرات، وزيادة وسائل التبادل والسلع بشكل عام، أعطت للتجارة والملاحة والصناعة، دفعا لم يسبق له مثيل، وبالتالي وفرت تطورا سريعا للعنصر الثوري داخل رحم المجتمع الإقطاعي المترنح»[3].

كانت إسبانيا في عصر سرفانتس مجتمعا يمر بمرحلة انتقالية. خلق اتحاد تاجي أراغون وقشتالة، الذي تحقق من خلال زواج فرديناند وإيزابيل، الأساس لتوحيد إسبانيا وإنشاء نظام ملكي مطلق. وكان سقوط غرناطة، آخر مملكة موريه في إسبانيا، آخر فصل في حرب الاسترداد التي استمرت لقرون. تبع ذلك بسرعة اكتشاف أمريكا وصعود إسبانيا باعتبارها قوة اقتصادية وعسكرية مهيمنة في أوروبا.

بحلول الوقت الذي ولد فيه سرفانتس، كان عدد سكان مدريد يبلغ 4000 نسمة فقط، على الرغم من أن هذا كان مشابها لعدد سكان طليطلة أو سيغوفيا أو بلد الوليد. كان نمو مدريد نتيجة للحقوق (Fueros) التي تنازل عنها ملوك قشتالة وليون للبرجوازية الإسبانية الناشئة في مرحلة العصور الوسطى. وخلال القرن الرابع

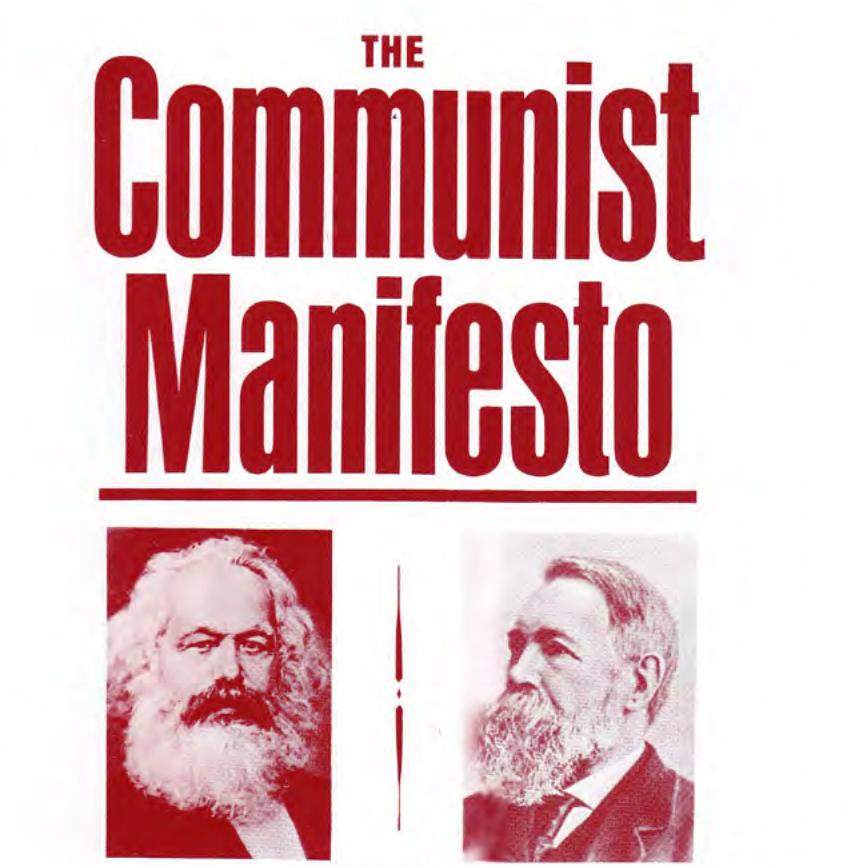

«اكتشاف أمريكا، والالتفاف حول رأس الرجاء الصالح، فتح للبرجوازية الصاعدة أرضا جديدة. إن أسواق الهند الشرقية والصين، واستعمار أمريكا، والتجارة مع المستعمرات، وزيادة وسائل التبادل والسلع بشكل عام، أعطت للتجارة والملاحة والصناعة، دفعا لم يسبق له مثيل، وبالتالي وفرت تطورا سريعا للعنصر الثوري داخل رحم المجتمع الإقطاعي المترنح»

عشر نقل فرديناند الرابع بلاطه إلى هناك للاستفادة من فرص القنص الوفيرة والطقس الجيد والمياه النقية. كما أنها أعطت للنظام الملكي قاعدة مستقلة، بعيدة عن سيطرة نبلاء المقاطعات.

في عهد فيليب الثاني، صار بناء الجهاز البيروقراطي الهائل للدولة المطلقة مكتملا ومتقنا. وتحولت مدريد من قرية ريفية رثة، إلى مدينة يسكنها 100.000 نسمة، مليئة بالكنائس والكاتدرائيات والقصور والسفارات. لكن من أجل بناء المدينة تم قطع جميع الغابات، فأصبحت المنطقة التي اشتهرت بهوائها الصحي ومياهها النقية، بؤرة للأوبئة. كانت شوارع مدريد مظلمة وضيقة ومليئة بالقمامة الفاسدة، والخنازير التي ترتع في القذارة. ومنازل بشعة وقصور سيئة الذوق وشوارع مليئة بالأوساخ، وجثث الحيوانات النافقة، والأحياء الفقيرة بجوها الكئيب، وأكواخ الفقراء المكدسة حول بيوت الأغنياء. كانت تنبعث في كل مكان الرائحة الكريهة للقمامة المتعفنة، وما هو أسوأ من القمامة، تتخمر في الشوارع حيث يتم رميها تحت جنح الظلام. لم يكن بلاط مدريد أفضل بكثير، فقد كان بكل المقاييس سيئ السمعة باعتباره الأكثر قذارة في كل أوروبا.

كان ذلك بمثابة مرجل يغلي بالتغيير الاجتماعي، حيث كانت الطبقات القديمة تذوب بشكل أسرع قبل أن تتمكن الطبقات الجديدة من أن تحل محلها. كان لانحلال الإقطاع، إلى جانب اكتشاف أمريكا، تأثير مدمر على الزراعة الإسبانية. فبدلا من فلاحين منتجين يكسبون خبزهم بعرق جبينهم، صرنا نشهد جيشا من المتسولين والطفيليات، وأرستقراطيين مفلسين ولصوص، وخدم ملكيون وسكارى، وكلهم يسعون لكسب العيش دون عمل.

بدأ العفن في القمة. وفي خضم كل هذا الفقر والقذارة والوضاء، كان البلاط الإسباني واحدا من أكثر بلاطات أوروبا تبذيرا. كان هناك مشهد لا نهاية له من الحفلات، والأقنعة والموسيقى. عاش أفراد العائلة المالكة الإسبانية حياة مترفة- لكن بالاستدانة. نادرا ما كانوا يدفعون لتجارهم. لقد كان ذلك الشيء المبتذل الذي هو المال، آخر ما يمكن للطبقة الأرستقراطية أن تفكر فيه.

عاشت طبقة النبلاء الطفيليين في ظروف من البذخ الفاحش لدرجة أنه أصبح من الضروري إصدار قوانين ضد الترف المفرط في الملابس والأثاث وحتى السروج. بل إن السلطات اضطرت لتنظيم عمليات حرق عامة للنعال المزينة والأحزمة النسائية والأقمشة المطرزة. في حين كان بعض الدوقات يتجولون برفقة مائة خادم يرتدون الحرير. وحتى ضباط الجيش ظهروا أمام العامة مرتدين لملابس فاحشة الثراء وسترات مزينة بالشرائط والمجوهرات والريش.

وعلى الرغم من القشرة الخارجية للتقوى الدينية، كان العديد من النبلاء يتغزلون علنا بالراهبات الشابات والجميلات اللواتي يقابلوهن في الشوارع. ويقال إن لوحة فيلاسكويز الشهيرة للمسيح قدّمها فيليب الرابع كهدية ندم على إحدى مغامراته الجنسية التي لا تعد ولا تحصى. لم تكن سيدات طبقة النبلاء أفضل حالا من رجالهن. فعندما تشاجرت دوقة ناجيرا وكونتيسة ميديلين، انهالتا في البداية على بعضهما البعض بسيل من الشتائم التي من شأنها أن تجعل الجماد يحمر خجلا، قبل أن تلتجئا إلى حجة أكثر اختراقا مصنوعة من الفولاذ البارد.

كان الفساد هو القاعدة، والمسؤولون الشرفاء هم الاستثناء. كانت الكنيسة والدولة تضمان جيشا كاملا من الطفيليات والمتملقين، كلهم يسعون جاهدين لجني ثروتهم من المال العام. عاش العديد من المسؤولين حياة بئيسة وكانوا مستعدين لبيع جدتهم مقابل بضعة ريالات. كان بيع المناصب هو القاعدة. وقد كتبت قصائد

شعرية للاستهزاء بالوزراء الأكثر فسادا. لكن، وكقاعدة عامة، لم يكن أحد يعير اهتماما كبيرا لظاهرة كانت شائعة جدا بحيث صار في الإمكان اعتبارها طبيعية.

الأرمادا العظيمة[4]

ورث فيليب الثاني إمبراطورية واسعة الثراء، لكنها كانت قائمة على أسس غير سليمة. ثم ساعد هو في تقويضها أكثر بالمغامرات والحروب الخارجية. شكل الايسكوريال (El Escorial) صرحا معماريا معبرا عن نظامه البيروقراطي الجامد. اختلطت هناك روح البيروقراطية ضيقة الأفق، بروح التعصب الديني: جزء منه قصر، وجزء منه دير، وجزء منه ضريح، وكان المركز الإداري لإمبراطورية شاسعة. وخلف الأسوار العالية للايسكوريال، انغمس فيليب الثاني في تخيلاته الإمبراطورية، حيث قام باستمرار ببناء وإصلاح وإعادة بناء قصوره الملكية، باستخدام الرخام ومواد أخرى باهظة الثمن.

سارع النبلاء إلى تقليد مثال ملكهم، فقاموا ببناء قصور خاصة بهم. سرعان ما أدى الانفجار العمراني إلى تدمير الغابات الكثيفة التي غطت منذ زمن سحيق جبال سييرا حول مدريد. أدت تلك المخططات الضخمة في النهاية إلى الإفلاس. هذه هي المفارقة المركزية: فإسبانيا في ذروة قوتها وثروتها، كانت تتجه نحو الانحطاط والفقر. وبعد قرن من الزمان، صارت شخصية هيدالغو (Hidalgo)، النبيل الفخور المفلس، بعباءته المليئة بالثقوب، وكيس نقوده الفارغ، وشجرة عائلته الطويلة طول قائمة ديونه، شخصية شائعة بالفعل في الأدب.

على الرغم من أن إسبانيا كانت القوة المهيمنة في أوروبا، فإن تطورها الاجتماعي تخلف عن نظيره في إنجلترا، حيث كانت العلاقات الرأسمالية في الزراعة متقدمة بالفعل، بعد الصدمات التي خلفها الطاعون وثورات الفلاحين في أواخر القرن الرابع عشر، كما يوضح ماركس:

«في إنجلترا، اختفت القنانة عمليا في الجزء الأخير من القرن الرابع عشر. تشكلت الغالبية العظمى من السكان في ذلك الوقت، وإلى حد أكبر في القرن الخامس عشر، من فلاحين أحرار مالكين، بغض النظر عن اللقب الإقطاعي الذي كان يختفي تحته حقهم في الملكية. وفي الإقطاعات الأكبر، تم استبدال وكيل المزرعة القديم، والذي كان هو نفسه من الأقنان، بالمزارع الحر»[5].

كان من الحتمي أن تصطدم القوة الصاعدة للرأسمالية الإنجليزية بقوة الإمبراطورية الإسبانية. قام التاج الإنجليزي، في البداية عن طريق القرصنة، ثم بشكل أكثر وضوحا، بتحدي السيادة الإسبانية على البحار. وتدريجيا بدأ الإنجليز والهولنديون في تعزيز موطئ قدمهم في منطقة البحر الكاريبي، مما وضع الأساس لإمبراطوريات استعمارية جديدة. وصل الصراع بين إسبانيا وإنجلترا إلى ذروته عندما أرسل الإنجليز مساعدة عسكرية إلى المتمردين الهولنديين البروتستانت، الذين ثاروا ضد الحكم الإسباني. الشيء الذي أدى بشكل حتمي إلى الحرب.

تلقت قوة إسبانيا ضربة موجعة وانهار فخرها بضربة قوية عندما تعرضت الأرمادا العظيمة للهزيمة في صيف 1588، بمزيج مميت من نيران السفن الإنجليزية والطقس السيِّئ. بين عشية وضحاها وجدت إسبانيا نفسها مهانة من قبل قوة إنجلترا الصاعدة. كان لتلك الهزيمة طابع رمزي، حيث تمت إزاحة عالم الإقطاعية

في بداية القرن السادس عشر، تطورت الرأسمالية بالفعل في كل من إسبانيا وإنجلترا. ومع ذلك فإنه من المفارقات أن اكتشاف أمريكا ونهبها من قبل إسبانيا أدى إلى خنق الرأسمالية الإسبانية عند الولادة. أدى تدفق الذهب والفضة من مناجم العبيد في العالم الجديد، إلى تقويض تطور الزراعة والتجارة والحرف والصناعة الإسبانية. لقد أشعلت نيران التضخم وخلقت البؤس بدلا من الرخاء.

«الاكتشافات الجديدة حولت التجارة البرية مع الهند إلى تجارة بحرية؛ وبلدان شبه الجزيرة، التي كانت حتى ذلك الحين بعيدة عن الطرق التجارية الكبرى، أصبحت آنذاك الفاعل الرئيسي في أوروبا»[6].

الكاثوليكية القديم بسرعة على يد القوة الصاعدة للبروتستانتية الرأسمالية في شمال أوروبا.

كانت السنوات الأخيرة لفيليب الثاني سنوات من التدهور الجسدي الشديد والمرارة والقلق. كانت الحروب الدموية في فلاندرز مستمرة بلا نهاية في الأفق. توفي عام 1598، بعد ثماني سنوات من هزيمة أسطول الأرمادا، وبوفاته انتهى العصر الذي كانت فيه إسبانيا سيدة العالم. كان ابنه فيليب الثالث إنسانا تافها، كان مهتما بمتعة المطاردة (سواء الخنازير البرية أو الممثلات الجميلات) أكثر من اهتمامه بشؤون الدولة. وبعد وقت قصير من وفاة والده، دنى منه أحد أمنائه وسأله: «ماذا سنفعل بالمراسلات يا مولاي؟»، فأجابه: «ضعها في يد دوق ليرما».

وهكذا أصبح الملك المطلق ملكا غائبا. كانت كل السلطات الحقيقية في يد خادمه، دوق ليرما. الانحطاط الداخلي لإسبانيا ازداد سرعة بسبب عدم كفاءة وانحطاط بلاطها الملكي. لكن الأسباب الحقيقية للانحطاط كانت في مكان آخر. كان ملوك إسبانيا يلعبون بإتقان دورهم في تلك الكوميديا المأساوية المتمثلة في احتضار إسبانيا وتفشي المحسوبية والفساد.

إسبانيا، التي كانت أول دولة قومية موحدة في أوروبا، والقوة الاقتصادية والعسكرية الرائدة فيها، تعرضت للهزيمة على يد تلك الأمم -بدءا من إنجلترا وهولندا- التي دخلت بشكل حاسم الطريق الرأسمالي، وحيث كانت البرجوازية تسعى جاهدة للحصول على السلطة السياسية .

الثروات الهائلة التي انتزعت من شرايين قارة بأكملها تبددت بسرعة على يد البلاط وجيش الأرستقراطية التابع له. ووراء جدران البلاط كان هناك بحر متلاطم من البؤس والفقر واليأس، والذي كان يتفجر بشكل دوري على شكل أعمال شغب واضطرابات عنيفة.

القرن الذهبي[7]

كانت إسبانيا في تلك المرحلة خلية نحل من النشاط. كانت أحداث كبرى تقع في الداخل والخارج هزت روح ومخيلة الجميع (رجالا ونساء). كانت تلك هي الخلفية الاجتماعية للقرن الذهبي الإسباني. لم يسبق للحياة الأدبية الإسبانية أبدا أن بلغت مثل تلك القمم المذهلة التي بلغتها في ذلك الوقت. في تلك الفترة، تولى ملوك ونبلاء إسبانيا تحت رعايتهم عددا كبيرا من الشعراء والروائيين والرسامين ذوي المستوى العالي. نادرا ما شهد العالم مثل تلك المجرة من المواهب الأدبية، بأسماء مثل ميغيل دي سرفانتس ، وفيليكس لوبي دي فيغا، وفرانثيسكو دي كيفيدو، وبيدرو كالديرون دي لا باركا، وتيرسو دي مولينا. وتجدر الإشارة إلى أننا لم نذكر هنا إلا أهم الأسماء فقط.

كان الشخصية البارزة في ذلك العصر هو لوبي دي فيغا، الذي وعلى الرغم من أنه ينحدر من عائلة أرستقراطية في سانتاندير، فإنه كان، مثله مثل سرفانتس ، يواجه دائما صعوبات اقتصادية . كان رجل عصره، وشارك انتصاراته ومآسيه. كان قد شارك في المغامرة الكارثية للأرمادا. وخاض مبارزة قاتلة، وتم طرده من مدريد بسبب ذلك. تزوج مرتين، وصار قسيسا بعد وفاة زوجته الثانية. وتوفي عام 1635 بعد أن جمع ثروة كبيرة.

من هذه المعلومات نرى أن حياته كانت، مثل حياة سرفانتس، مليئة بالمغامرات والحب والسفر. كانت تلك الحياة ممتلئة لدرجة أننا نسأل أنفسنا متى كان يجد الوقت لكتابة أي شيء على الإطلاق. إلا أنه كتب عددا هائلا من الأعمال: 2000 مسرحية لم يسبق لها مثيل في الأدب الإسباني. لم يعد موجودا منها سوى حوالي 430. من بينها هناك: أفضل عمدة (El Mejor Alcalde)، الملك El Rey؛ وفوينتي أوبيخونا (Fuenteovejuna) (استنادا إلى حدث حقيقي)، وبيريبانييز وقائد أوكانيا (Peribañez o El Comendador de Ocaña). كما كتب الكثير من القصائد والملاحم والروايات النثرية، وكذلك مؤلفات دينية.

نرى في بعض تلك الأعمال عناصر اجتماعية وسياسية مهمة. استندت "فوينتي أوبيخونا" إلى حدث حقيقي يتضمن تمردا شعبيا، بينما تفضح "بيريبانييز وقائد أوكانيا" العلاقات الإقطاعية الاستبدادية في ريف إسبانيا. يظهر عامة الناس في تلك الأعمال في حالة تمرد ضد السادة الإقطاعيين، لكن المَلَكية تُصَوَّر على أنها حليف الشعب والمدافع عنه. وبعبارة أخرى، ما لدينا هنا هو تعبير أدبي عن مفهوم الحكم المطلق. لقد عزز النظام الملكي المطلق سيطرته في إسبانيا، مثله مثل أي مكان آخر، على حساب النبلاء من خلال التوازن بين الطبقات.

كان بيدرو كالديرون دي لا باركا، معاصر لوبي، كاتبا مسرحيا وفيلسوفا وعالم لاهوت، كتب، من بين مؤلفات أخرى، الحياة حلم (La Vida es Sueño) وعمدة ثلاميا (El Alcalde de Zalamea). كان يتمتع بشعبية مساوية لشعبية لوبي. ولد عام 1600 لعائلة ميسورة الحال، كان والده سكرتيرا للخزانة، وتلقى تعليمه في جامعات مرموقة في سالامانكا وألكالا دي إيناريس. شارك لاحقا في الحملات على فلاندرز وفي قمع الانتفاضة الكتالونية عام 1640. ويقال إنه كانت لديه علاقة حب غير شرعية، واحدة على الأقل، وطفل غير شرعي. لكنه في عام

1651، أعرب عن رغبته الانخراط في حياة القساوسة، ولم يتم إيقافه إلا بتدخل شخصي من فيليب الرابع.

مسرحيات كالديرون لها عنصر أخلاقي قوي يطبع شخصياته بقوة. إنها مكتوبة بأسلوب باروكي. الموضوع الرئيسي في عمدة ثلاميا (El Alcalde de Zalamea) وطبيب سيادته (El Médico de su Honra)، هو الشرف. إنه المثل الأعلى الإقطاعي لمجتمع البلاط الذي لم يوجد قط، وبالتأكيد لم يكن موجودا في ذلك الوقت. لا عجب أن فيليب الرابع، أمير العاهرات، كان معجبا بتلك الأعمال بشدة! وكان عنوان أشهر أعماله، أي "الحياة حلم"، هو العنوان الأنسب للعصر الذي كتب فيه. فقد كانت الطبقة السائدة الإسبانية تعيش في حلم كانت ستستيقظ منه بضربة موجعة.

اسم فرانسيسكو دي كيفيدو غير معروف كثيرا خارج إسبانيا، لكنه كان كاتبا عظيما آخر من كتاب القرن الذهبي. اسمه مرتبط بالسخرية. وقد ترك وراءه صورة حية عن إسبانيا في ذلك الوقت، في تحفته "المحتال" (El Buscón)، التي تنتمي لما يُعرف بأدب الصعاليك (Picaresque literature). تتميز أعماله بروح الدعابة الخفية والروح النقدية، والتي تضرب بجذورها بوضوح في أحداث تلك الفترة المأساوية في التاريخ الإسباني التي كان مقدرا له أن يعيش ويكتب فيها.

رأى كيفيدو أن تراجع إسبانيا كان مرتبطا بتدهور وفساد البلاط. كانت عصابة الطفيليات التي تحتل قصر مدريد معروفة جيدا بالنسبة له، بفضل تجربته داخل البلاط عندما كان شابا. وفي سن الواحد والثلاثين قرر الانتقال إلى إيطاليا ليشتغل في نابولي في منصب سكرتير لدوق أوسونا، لكن عندما سقط هذا الأخير، عانى كيفيدو من السجن والنفي. تم إنقاذه من قبل دوق أوليفاريس، المساعد المستقبلي لفيليب الرابع، والذي حافظ معه طوال حياته على علاقة حب وكراهية غريبة.

ربما يكون كتابه، "المحتال"، أفضل روايات أدب الصعاليك في القرن السابع عشر. ويصف في روايته (أحلام) حياة البلاط والأرستقراطية. لكن ذلك لم ينته بشكل جيد فتعرض للسجن لاحقا بسبب انتقاده للدوائر الحاكمة ودوق أوليفاريس. وعندما سقط الأخير، تم إطلاق سراح كيفيدو من السجن، لكنه توفي في غياهب النسيان بعد عامين فقط، في عام 1645.

قائمة المؤلفين طويلة، لكننا سنكتفي بذكر واحد آخر فقط من تلك الفترة، وهو: تيرسو دي مولينا. كان هذا هو الاسم المستعار لفرايل غابرييل تيليث (Fraile Gabriel Tellez)، الذي كان قسيسا، وترك لنا قصة خالدة لواحدة من أكثر الشخصيات اللاأخلاقية (أو بالأحرى المتحررة من الأخلاق) في الأدب العالمي -دون جوان- الشخصية المركزية في رواية "محتال إشبيلية" (El Burlador de Sevilla). من المثير للاهتمام أن هذا الكاهن كان على دراية جيدة بسيكولوجية النساء. ففي كوميديا الدسائس "Comedias de Enredo" (على سبيل المثال مسرحيتي: Don Gil de las calzas verdes وEl amor medico) تكون الشخصية الرئيسية دائما امرأة.

رواية الصعاليك

«نشأت البروليتاريا نتيجة تفكيك روابط الالتزامات الإقطاعية وانتزاع الأرض بشكل قسري من الشعب. هذه البروليتاريا "الحرة" لم يكن من الممكن امتصاصها من طرف المانيفاكتورات الوليدة بنفس السرعة التي ألقيت بها إلى العالم. ومن ناحية أخرى، لم يكن في إمكان هؤلاء الذين انتزعوا فجأة من نمط حياتهم المعتاد، أن يتكيفوا بغتة مع الانضباط الذي يفرضه وضعهم الجديد. لقد تحولوا بشكل جماعي إلى متسولين ولصوص ومتشردين، برغبة منهم أحيانا، وبفعل ضغط الظروف في معظم الأحيان. لهذا صدرت، في نهاية القرن الخامس عشر وخلال القرن السادس عشر بأكمله، في جميع أنحاء أوروبا الغربية تشريعات دموية ضد التشرد. تمت معاقبة أسلاف الطبقة العاملة الحالية لأنهم تحولوا، رغما عنهم، إلى متشردين ومعوزين. لقد عاملهم التشريع كمجرمين "بإرادتهم"، وافترض أن مواصلة العمل في ظل الظروف القديمة التي لم تعد موجودة، أمر رهين بإرادتهم»[8].

كانت تلك هي الفترة التي عرفت ميلاد ذلك النوع الأدبي الإسباني: رواية الصعاليك (The picaresque novel). الصعلوك ('pic-aro') هو إنسان غشاش مارق ومغامر، يعيش باستعمال ذكاءه لأنه ليس لديه أي شيء آخر يعيش به. إنه نتاج لمرحلة اجتماعية تاريخية محددة: مرحلة الانتقال التي نتجت عن انحطاط النظام الإقطاعي. لدينا هنا حطام ومخلفات عالم في سيرورة تحلل كاملة. أدى انحلال النظام القديم إلى ظهور حالة فوضوية كانت خلالها الأخلاق القديمة تتحلل، لكن دون أن يوجد شيء يحل محلها: ومن هنا جاءت العدمية الأخلاقية المبهجة للصعلوك.

يقدم لنا المجتمع الإسباني في ذلك الوقت فسيفساء غنية من الأوغاد واللصوص والمحتالين، بشكل، ربما، لا مثيل له في تاريخ العالم. يمكن تلخيص فلسفة هذه الفئة في كلمة واحدة: الصراع من أجل البقاء. كانت حياتهم عبارة عن تدافع مجنون لتأمين وسائل العيش بأي طريقة ممكنة. وكان شعارهم: "كل إنسان لنفسه، وليذهب العالم إلى الجحيم".

بحلول النصف الثاني من القرن الخامس عشر، أصبحت مدريد بالفعل عاصمة إسبانيا "النبيلة والمخلصة للغاية" (muy noble y leal). بدأ عدد السكان في الارتفاع مع تدفق الغرباء الذين انجذبوا إلى البلاط مثل انجذاب النحل إلى العسل، أو الذباب إلى الأشياء الأقل جمالا. لقد عكست رواية الصعاليك حقيقة الوضع خلال تلك المرحلة التي كان فيها النظام الإقطاعي الإسباني في حالة احتضار. خداع التاجر، ووحشية الجنود، وتعصب الكهنة، وفساد الحاشية، كانت تلك ببساطة حقائق الحياة الواقعية.

كان ذلك المشهد المعقد، في الواقع، تعبيرا عن مجتمع في سيرورة تحلل لا مفر منها. وإلى جانب الطبقة الأرستقراطية، بألقابها الرفيعة ومحافظها الفارغة، كان هناك عدد كبير من العناصر المتحللة طبقيا والمرتزقة والمغامرين. كانت شوارع العاصمة مليئة بالمجرمين والفارين من الجيش والبلطجية من جميع الأنواع والأحجام، وهم يحملون السيوف والخناجر. كان بإمكانهم أن يخوضوا

قتالا أو ينشلوا جيبا بنفس السهولة. كانت عصابات اللصوص نشطة، وفي الليل لم يكن التواجد في الشوارع فكرة حكيمة. وقد أعرب أحد المؤرخين المعاصرين عن أسفه قائلا: «لا يوجد أي متمرد أو مشلول أو شخص بيد واحدة أو ساق واحدة أو أعمى في كل فرنسا أو ألمانيا أو إيطاليا أو فلاندرز، لم ينزل إلى قشتالة».

هذه هي التربة الحقيقية التي نشأ منها لازاريلو دي تورميس وبوسكون، وأخيرا، لكن ليس آخرا، دون كيشوت. رواية الصعاليك، باعتبارها أسلوبا أدبيا، نشأت عن انحطاط رومانسية الفروسية، تماما كما نشأت تلك النماذج البشرية المشار إليها أعلاه عن انحطاط الإقطاع، إنها مجرد طريقة أخرى للتعبير عن نفس الفكرة. انحلال الإقطاع أدى بشكل حتمي إلى رد فعل ضد القيم والأخلاق والمثل العليا للإقطاع. وقد عبر رد الفعل هذا عن نفسه من خلال السخرية والتهكم. إن النظرة التي عفا عليها الزمن، والتي استنفذت صلاحيتها، تصير سخيفة بطبيعتها، وبالتالي تصير مصدرا للفكاهة.

تعج تلك الصفحات بجميع أنواع الحياة والأشخاص ذوي الشخصيات القوية والملونة. وذلك البطل المخالف للعرف (Anti-hero) في رواية الصعاليك، مثل لاثاريو دي تورميس (Lazarillo de Tormes) هو تصوير كاريكاتوري لأبطال مرحلة الرومانسية الفروسية. فبدلا من فارس يرتدي درعا لامعا، نجد متسولا شابا نذلا، وهو الشخصية المألوفة في إسبانيا في ذلك الوقت.

لدينا هنا الميلاد الحقيقي لنوع أدبي شهير ظهر مرة أخرى لاحقا في رواية "جيل بلاس" (Gil Blas) لمؤلفها لوساج (Lesage)، ورواية جوناثان وايلد (Jonathan Wilde) لفيلدينغ، ورواية باري ليندون (Barry Lyndon) لثاكيراي (Thackaray). تمتلئ صفحات رواية دون كيشوت بشخصيات ومواقف مأخوذة من الكتاب العظيم للحياة نفسها. إن روح هذا الكتاب، بواقعيته الدنيوية وتفاؤله المبهج، تعكس بوضوح تام روح النزعة الإنسية في عصر النهضة، وليس روح الإصلاح المضاد على الإطلاق. في هذه الرواية لا تتجه أعيننا إلى أعلى نحو السماء، بل إلى الأسفل نحو الأرض وكل ثرواتها. وشعارها هو: "لا أعتبر أي شيء بشري غريبا عني."

هناك عنصر قومي قوي في رواية دون كيشوت. فهذا كتاب إسباني بشكل جوهري. لم يكن من الممكن أن يكتب في أي مكان آخر. لدينا هنا كل التباين الحاد بين الشمس والظل الذي يميز المشهد الإسباني، والذي ينعكس أيضا في الحياة الإسبانية وشخصية الشعب الإسباني. لكن هذا التفسير، على الرغم من صحته، غير كاف بأي حال من الأحوال. لا يمكن للمرء أن يشرح بشكل كامل ثراء توصيف سرفانتس، بالاعتماد فقط على مفاهيم قومية بحتة. فمن أجل فهم سرفانتس بشكل صحيح، من الضروري وضعه في سياقه الاجتماعي والاقتصادي والتاريخي.

كان ماركس هو الذي أشار إلى أن فترات التحول التاريخي الكبرى تكون غنية بشكل خاص "بالشخصيات". ينطبق هذا على شكسبير مثلما ينطبق على سرفانتس. كانت إنجلترا في عصر شكسبير، مثل إسبانيا في عصر سرفانتس، في خضم ثورة اجتماعية واقتصادية عظيمة. كان ذلك تحولا مضطربا ومؤلما للغاية، دفع عددا كبيرا من الناس إلى الفقر وخلق في المدن طبقة كبيرة من حثالة البروليتارية المحرومة: المتسولون واللصوص والعاهرات والفارون من الجيش، وما شابه ذلك، والذين احتكوا مع أبناء الأرستقراطيين المفلسين والكهنة المطرودين ليشكلوا احتياطيا لا نهاية له من الشخصيات مثل: السير جون فالستاف، ولازاريلو دي تورميس.

مشاهد التهتك والبهجة في الحانات الوضيعة في رواية دون كيشوت، تضفي على الرواية الحياة والألوان، بينما تسلط الضوء على التناقض المركزي لتلك الفترة التاريخية. حيث أن عامة الشعب الإسباني كانت حيوية ومقبلة على الحياة، في حين أن النبلاء كانوا عبثيين ودون روح. يحتوي الموضوع المركزي لرواية دون كيشوت على حقيقة تاريخية أساسية عن إسبانيا في مرحلة الانحطاط الإقطاعي. حيث تظهر أن مُثُل الفروسية صارت آنذاك غريبة وسخيفة وعفا عليها الزمن في عصر الاقتصاد الرأسمالي الناشئ، حيث صارت جميع العلاقات الاجتماعية والأخلاق والقيم محكومة من خلال رابطة المال عدا ونقدا.

فترة انتقالية

«لقد وضع [ماركس] سرفانتس وبلزاك فوق كل الروائيين الآخرين. وقد رأى في دون كيشوت ملحمة الفروسية المحتضرة التي تمت السخرية من قيمها والاستهزاء بها في العالم البرجوازي الناشئ»[9].

تحيك كل الطبقات السائدة نفس الأوهام عن نفسها. فهم في خيالهم يصارعون ويقهرون الأبطال، في حين أنهم في الواقع منغمسون في أكثر الأعمال دناءة وقذارة. كتب ماركس، الذي كان معجبا جدا بدون كيشوت:

«ومع ذلك، فمن الواضح أنه لا العصور الوسطى كانت تستطيع أن تعيش على الكاثوليكية، ولا العالم القديم على السياسة. بل على العكس من ذلك، فإن الطريقة التي اكتسبوا من خلالها سبل العيش هي التي تفسر لماذا لعبت السياسة هنا، والكاثوليكية هناك الدور الرئيسي. هذا بالإضافة إلى أن الأمر لا يتطلب سوى معرفة بسيطة بتاريخ الجمهورية الرومانية، على سبيل المثال، لإدراك أن تاريخها السري هو تاريخ ملكيتها العقارية. ومن ناحية أخرى فقد دفع دون كيشوت، منذ زمن بعيد، ثمن تصوره الخاطئ القائل بأن نظام الفروسية الجوالة متوافق مع جميع الأشكال الاقتصادية للمجتمع»[10].

وفي حين نجد أنه في كتابات لوبي دي فيغا (Lope de Vega) يتم التعامل مع فكرة الشرف الإقطاعية القديمة بجدية كبيرة ، فإنه يتم تحويلها في دون كيشوت إلى موضوع للفكاهة. سرفانتس يتطلع إلى الأمام، بينما لوبي ينظر إلى الوراء. يمثل سرفانتس الانتقال نحو المجتمع والأخلاق الرأسماليين، القائمين على أساس المال وليس الرتبة، بينما ينظر لوبي بحنين إلى الوراء، إلى اليقينيات الأخلاقية لعالم متلاشي، حيث كان كل إنسان يعرف مكانه، وكان المجتمع متماسكا من خلال دعامة قوية من الشرف والالتزامات المتبادلة. ومع ذلك فإن أعمال لوبي تعترف بالهزيمة: إنها اعتراف ضمني بأن تلك القيم قد انهارت مع المجتمع القديم الذي أنتجها.

جوهر الفكاهة في رواية دون كيشوت هو بالضبط التناقضات الناتجة عن الانتقال من الإقطاع إلى الرأسمالية، من مجتمع قائم على مفهوم الخدمة الإقطاعية والشرف والولاء، إلى مجتمع مختلف تماما يعتمد حصريا على العلاقات المالية. أسلوب الفارس الجوال دون كيشوت يتعارض مع الواقع الاجتماعي والاقتصادي القائم، مثلما تتعارض الأحلام مع حقائق الحياة اليومية. إنها تعبير أدبي عن إفلاس الأرستقراطية الإسبانية، التي غطت فقرها بهالة من النبل المزيف. إنها تعبير عن مأزق طبقة اجتماعية لا تفهم أنها محكوم عليها بالفناء، وأن الطرق القديمة لم يعد لها أي دور لتلعبه.

يبدو لنا هذا التناقض سخيفا وبالتالي فكاهيا. الفقراء، الذين يُفترض أنهم جاهلون، يفهمون حقيقة الأمور وينسبون سلوك الفرسان إلى الجنون. إنه بالفعل نوع من الجنون، لكنه ليس جنونا فرديا بل جنون طبقة اجتماعية بأكملها استنفدت شروط بقاءها، لكنها مع ذلك تظل غير متوافقة مع الحقيقة، وغافلة عنها بالفعل.

في واقع الأمر، كانت إسبانيا، في ذلك الوقت، مليئة بذوي الأسماء العظيمة والألقاب الرائعة الذين لم يكن لديهم بنس واحد. بل وكان هناك حتى ملاكون عقاريون عظماء، كانوا بالكاد أفضل من المتسولين. في الفصل الأول، نجد بالفعل وصفا للدون كيشوت بكونه عضوا في طبقة النبلاء التي هي مجرد ظل لنفسها، طبقة تعيش على حافة الفقر، ولا تولي اهتماما كبيرا للأعمال الدنيوية كالإنتاج الزراعي:

«عليك أن تعلم إذن، أنه عندما لم يكن لدى نبيلنا هذا شيء ليفعله (وهو ما يصدق على العام كله تقريبا)، كان يقضي وقته في قراءة كتب الفروسية؛ وهو ما كان يفعله بنهم وابتهاج، إلى درجة أن انتهى به الأمر إلى أن تخلى تماما عن القنص، بل وحتى العناية بممتلكاته»[11].

لم يكن لدى دون كيشوت أي تصور عن المال. وقد هتف ساخطا: «هل سبق له أن سمع بفارس جوال دفع ضرائب أو إعانة أو جزية أو ما شابه ذلك مثل رسم السفر أو رسوم مرور؟ متى حصل أي خياط على مال منه مقابل خياطة ملابسه؟ أو أي حاكم جعله يدفع مقابل الإقامة في قلعته؟»[12]. إنه خارج الاقتصاد النقدي تماما، على الأقل في ذهنه. لو تُرك الاقتصاد لدون كيشوت لانهار المجتمع سريعا، لأنه في ذلك الوقت لم يكن أحد قد سمع عن الائتمان، كما أنه حتى حامل بطاقة الائتمان سيواجه، عاجلا أم آجلا، ضرورة تسوية فواتيره.

في حلقة النزل، في الفصل الثالث، تلقى دون كيشوت درسا عن الاقتصاد الحديث من صاحب الحانة الذي سأله عما إذا كانت لديه أي أموال، فأجابه دون كيشوت: «"ولا سنتيم، [لأنني] لم أقرأ في أي من كتب تاريخ الفروسية أنه سبق لأي فارس جوال أن حمل أموالا معه". فرد عليه صاحب الحانة "أنت مخطئ، فمع اعترافي بأن كتب التاريخ لم تذكر هذا الأمر، فذلك لأن المؤلفين رأوا أنه لا داعي لذكر أشياء ضرورية للغاية مثل المال والقمصان النظيفة، ومع ذلك فإنه لا يوجد سبب للاعتقاد بأن الفرسان كانوا يسافرون دونهما؛ ويمكنك أن تطمئن أن جميع الفرسان الجوالين، الذين امتلأت بذكرهم العديد من كتب التاريخ، كانت أكياسهم ممتلئة جيدا لتوفير الضروريات لأنفسهم، كما حملوا معهم أيضا بعض القمصان، وصندوقًا صغيرا من المراهم لمداواة جروحهم"»[13].

وقد تعلم الدرس جيدا. فعند انطلاقه في جولته الثانية من المغامرات، حرص دون كيشوت على التزود بقدر كاف من المال، مما أدى إلى إغراقه في الكثير من الديون نتيجة لذلك. وقد تم إبلاغنا في الفصل السابع أن: «دون كيشوت حرص على أن يزود نفسه بالمال؛ ولذلك الغرض عمل على بيع منزل ورهن منزل آخر، وخسارة كل شيء، فحصل أخيرا على مبلغ جيد جدا»[14]. كانت هذه قصة الأرستقراطية الإسبانية بأكملها وقصة إسبانيا نفسها.

سانشو بانزا

في رواية دون كيشوت هناك بطلان، وليس بطل واحد. فإلى جانب الفارس الطويل النحيف، الذي يمتطي حصانا عجوزا هزيلا، يوجد فلاح سمين قصير يمتطي بغلا.

نجد هنا أحد أعظم ثنائيات الأدب العالمي، لا ينفصلان مثل السالب والموجب. لكن ماذا عن ذلك البطل الثاني للرواية؟ سانشو بانزا هو عامل مزرعة فقير، وهو أحد جيران دون كيشوت، "رجل نزيه (إذا كان من الممكن بالفعل منح هذا اللقب لمن هو فقير)، لكن مع القليل من الذكاء". من المفترض أن افتقار سانشو إلى الذكاء هو ما دفعه إلى اتباع سيده نصف المجنون. ومع ذلك، فإن العامل الزراعي غير المتعلم هو الذي كان في كل خطوة يفهم حقيقة الوضع ويحاول إظهارها لسيده، الذي يرفض بطبيعة الحال تصديقه.

نجد هنا أفكارا فلسفية أيضا. لم تكن الفلسفة السائدة في إسبانيا في عصر سرفانتس تصل أبعد من مدرسة العصور الوسطى، وهي نسخة مبتذلة من أرسطو مختلطة مع مثالية أفلاطون. كان التقدم الحقيقي الوحيد الذي حققته الفلسفة، خلال العصور الوسطى، قد تم على يد الفلاسفة المسلمين وعلماء الأندلس، لكن بما أن إسبانيا المسيحية كانت قد خرجت للتو من حرب طويلة لانتزاع الجنوب من الموريين، فقد كانت تلك الأفكار ملعونة بالنسبة لها. أحكمت الكنيسة قبضتها الخانقة على الفلسفة، شأنها في ذلك شأن جميع جوانب الحياة الفكرية الأخرى باستثناء الأدب.

أمضى الفلاسفة السكولاستيكيون المسيحيون وقتا طويلا للغاية في مناقشة أسئلة مثل جنس الملائكة، وعدد الملائكة الذين يمكنهم الرقص فوق رأس دبوس. يسخر سرفانتس من جدالات الجامعة من خلال الجدل المضحك حول خوذة مامبرينو. إلا أن دون كيشوت نفسه يتبنى فلسفة مثالية. ففي الفصل العاشر، ألقى أحد خطاباته المعتادة حول مبادئ الفرسان الجوالين، حيث أثبت، بما لا يدع مجالا للشك، أن الفرسان الجوالين (وضمنيا مرافقيهم) لا يحتاجون إلى تناول الطعام:

أجاب دون كيشوت: «كم أنت مخطئ أيها الصديق سانشو. اعلم أن مجد الفرسان الجوالين هو أن يقضوا شهرا كاملا دون أكل؛ وعندما يفعلون ذلك، فإنهم يتناولون أي

شيء يحصلون عليه، حتى ولو لم يكن طعاما مألوفا. فلو كنت قد قرأت الكثير من الكتب كما فعلت أنا، لكنت على دراية أفضل بهذه المسألة؛ وعلى الرغم من أنني أعتقد أنني قد قرأت العديد من كتب تاريخ الفروسية أكثر من أي رجل آخر، فإنني لم أجد أبدا أن الفرسان الجوالين قد كانوا يأكلون أبدا، إلا إذا كان ذلك عن طريق الصدفة، أو عندما كانت تتم دعوتهم إلى المآدب الكبرى والموائد الملكية؛ أما في أوقات أخرى فقد كانوا يتناولون القليل من الطعام إلى جانب أفكارهم. لكن لا تتخيل أنه كان بمقدورهم العيش دون تلبية متطلبات الطبيعة البشرية، حيث إنهم في نهاية المطاف ليسوا سوى بشر مثلنا، لكن ولأنهم يقضون الجزء الأكبر من حياتهم في الغابات والصحاري، ودائما دون طباخ، فإن وجباتهم المعتادة لم تكن سوى الطعام الخشن مثل هذا الذي تقدمه لي الآن. لذلك لا تنزعج أبدا، يا صديقي سانشو، بشأن يرضيني، ولا تتظاهر بصنع عالم جديد، ولا تفكك دستور وعادات الفرسان الجوالين القديمة»[15].

لكن سانشو بانزا مادي فلسفي مقتنع ولن يوافق على أي كلمة من ذلك:

صاح سانشو: «أشكر فخامتك. لكني ومع ذلك يجب أن أتزود ببعض الحاجيات،

لـو كان لـدي قـدر كبـير مـن اللحـم أمامـي، لكنـت سـألتهمه حتـى لـو كنـت وحـدي بنفـس الشـهية، أو بالأحـرى أفضـل، مـما لـو جلسـت بجانـب إمبراطـور؛ ولـكي أكـون صريحا وصادقـا معـك، أقـول لـك إنـه مـن الأفضـل لي أن أتنـاول قطعـة خبـز أسـمر وبصـل في زاويـة معزولـة، دون مزيـد مـن اللغـط أو الاحتفـال، عـوض أن أتغـذى عـلى ديـك رومـي عـلى طاولـة رجـل آخـر، حيـث يكـون المـرء مجـبرا عـلى أن يجلـس وهـو يمضـغ قطعـة لحـم لمـدة سـاعة، ولا يـشرب إلا قليـلا، ويمسـح أصابعـه وفمـه بشـكل دائـم، ولا يجـرؤ أبـدا عـلى أن يسـعل أو يعطـس، ولا أن يقـوم بالعديـد مـن الأشـياء التـي قـد يفعلهـا الإنسـان بحريـة عندمـا يكـون وحيـدا، لذلـك ألتمـس منـك، يـا سـيدي، أن تغيّر علامـات لطفـك، التـي تغدقهـا عـلي لأني خادمـك، إلى شيء قـد يفيـدني أكـثر. أمـا بالنسـبة إلى تلـك الأفضـال نفسـها، التـي أشـكرك مـن صميـم القلـب عليهـا كـما لـو كنـت قـد قبلتهـا، فـإني أتخلى عـن حقـي فيهـا مـن الآن حتـى يـوم القيامـة»[16].

يتضـح مـن هنـا أن سانشـو بانـزا ليـس جاهـلا حقـا. فأقوالـه تحتـوي عـلى الحـس الدنيـوي العـام للجماهـير. وقدمـاه راسـختان عـلى الأرض. إنـه يعيـش في العـالم الحقيقـي، الـذي غـادره دون كيشـوت منـذ فـترة طويلـة. إنـه يـأكل ويـشرب ويعطـس وينـام ويـؤدي جميـع الوظائـف الجسـدية الأخـرى التـي يحتقرهـا سـيده المثـالي. في الواقـع، كان سانشـو مهتـما بشـكل أسـاسي ببطنـه (كلمـة بانـزا (Panza) بالإسـبانية تعنـي في الواقـع "بطـن"). عنـد مرحلـة مـا سـأل سـيده عـن معـدلات الأجـور المخصصـة لمرافقـي الفرسـان الجوالـين. وفي مـكان آخـر، يقـول دون كيشـوت: «لأني تعلمـت، مـن خـلال التجربـة، أن كلمـة الفـلاح لا يحكمهـا الـشرف، بـل يحكمهـا الربـح».

الكنيسة

خـلال القرنـين الخامـس عـشر والسـادس عـشر، كانـت إسـبانيا الكاثوليكيـة في طليعـة الرجعيـة الأوروبيـة. كان ذلـك عـصر الإصـلاح - والإصـلاح المضـاد. وقفـت الكنيسـة الرومانيـة المقدسـة في مركـز النظـام القائـم وحاربـت بـضراوة للدفـاع عـن سـلطتها وامتيازاتهـا ضـد روح العـصر الجديـد. وفي تلـك المعركـة الداميـة

مـن أجـل أرواح النـاس، لم تكـن الأسـلحة المسـتخدمة مجـرد الـكلام فقـط، بـل السـيف والنـار. لقـد أخـذوا عـلى محمـل الجـد كلـمات الكتـاب المقـدس التـي تقـول: "مـا جئـت لأجلـب سـلاما بـل سـيفا".

كانـت الكنيسـة الكاثوليكيـة الرومانيـة قويـة للغايـة في إسـبانيا، وهـي حقيقـة يؤكدها واقـع أن الكاردينـال سيسـنيروس أصبـح وصيًـا عـلى العـرش بعـد وفـاة فرديناند. وبعـد أن قـضى عامـين في الحكـم عمـل عـلى تسـمية تشـارلز، حفيـد الملكـين الكاثوليكيـين فرديناند وإيزابيـلا، ملـكا عـلى إسـبانيا. بـدأ تشـارلز سياسـة مركزيـة، وفي سـياقها جعـل مدريـد عاصمـة لحكمـه. أمـر ببنـاء الايسـكوريال في سـييرا، بـل وشـارك أحيانـا في الإشراف عـلى العمـل فيهـا.

كان ذلـك المجتمـع مجتمعـا يسـوده الكهنـة. أدى ذلـك إلى إنشـاء محاكـم التفتيـش وجمعيـة يسـوع (اليسـوعيون)، التـي أسسـها المتعصـب الباسـكي سـان إغناسـيو دي لويـولا، كقـوة ضاربـة متشـددة في خدمـة الإصـلاح المضـاد. كان فيليـب الثـاني خاضعـا للديـن ومهووسـا بـه لدرجـة أنـه لم يكـن قـادرا عـلى اتخـاذ حتـى أصغـر قـرار سـياسي دون التشـاور أولا مـع كهنتـه.

كانـت مدريـد والمـدن الإسـبانية الأخـرى مليئـة بالمؤسسـات الدينيـة والكنائـس والمعابـد والأديـرة المخصصـة للرتـب الكهنوتيـة مثـل دير ديسـكالثاس (Descalzas) أو ديـر الراهبـات الحفـاة اللـواتي عشـن بالطريقـة التـي يشـير إليهـا أسـمهن. وكانـت بـلازا مايـور في مدريـد، تشـهد جميـع أنـواع الألعـاب والحفـلات للترفيـه عـن الجمهـور، بمـا في ذلـك الحـدث الأكـثر إثـارة عـلى الإطـلاق وهـو احتفـال فعـل الإيمـان "auto da fé"[17].

تغلغل الدين في كل مسـام المجتمع الإسـباني دون إحـداث أي تأثـير ملحـوظ عـلى الآداب العامـة. كانـت الطبقـات الشـعبية، ورغـم كونهـا متدينـة ظاهريـا، مهووسـة بالفتِشـية الخرافيـة التـي لم تفعـل شـيئا لغـرس شـعور الاعتـدال في سـلوكهم. كان الآلاف يتجمعـون في سـاحة بـلازا دي لا سـيبادا للاسـتماع إلى صراخ بعـض الرهبـان شـبه المجانـين. كـما دفعهـم الهـوس بعبـادة الأيقونـات إلى كشـط الجبـس مـن جـدران الكنائـس للاحتفـاظ بـه للبركـة.

ومـع ذلـك فـإن مـزاج التعصـب الدينـي السـائد لم يفعـل شـيئا لمنـع انتشـار وبـاء السرقـة والاغتصـاب والقتـل والصراعـات والمبـارزات، التـي كانـت منتـشرة عـلى نطـاق واسـع آنـذاك. ومـن عهـد المتعصـب الدينـي ضيـق الأفـق فيليـب الثـاني، إلى عهـد المتهتـك فيليـب الرابـع، وصـل الفسـق إلى أقـصى الحـدود. كانـت الكنيسـة نفسـها تعكـس الأخـلاق العامـة لذلـك العـصر. كانـت هنـاك

حـالات تـورط خلالهـا الرهبـان في عمليـات السـطو والاغتصـاب والقتـل. كانـت المبـارزات تحـدث بالعـشرات كل يـوم. وفي الليـل، كان مـن المسـتحيل تقريبـا عبـور الشـوارع، حيـث كانـت إضـاءة المدينـة مقتـصرة عـلى تلـك المصابيـح التـي تومـض عـلى جـدران المنـازل أمـام صـور العـذراء والقديسـين.

والكنيسـة، التـي كان مـن المفـترض فيهـا أن تكـون حـارس الأخـلاق العامـة، كانـت في الواقـع مرتعـا للمكائـد السياسـية. أمـا إصرارهـا المتعصـب عـلى التمسـك بالنقـاء العقائـدي المفـترض، فقـد كان في الواقـع مجـرد وسـيلة لتعزيـز سـيطرتها عـلى كل جوانـب الحيـاة والسـلوك البشريـين. كانـت تلـك الديكتاتوريـة الروحيـة، المدعومـة بمحاكـم التفتيـش -جسـتابو العصـور الوسـطى- مجـرد مظهـر آخـر مـن مظاهـر الدولـة البيروقراطيـة التـي سـيطرت عـلى إسـبانيا وحكمـت فـوق أنقاضهـا.

كان التعصـب وانعـدام التسـامح سـائدان. وبعـد غـزو غرناطـة، أُجـبر المسـلمون عـلى اعتنـاق المسـيحية أو مغـادرة إسـبانيا. اضطـر الكثـير منهـم إلى اعتنـاق المسـيحية مـن أجـل البقـاء في وطنهـم، لكنهـم رغـم ذلـك تعرضـوا لـكل أنـواع القيـود والمكائـد تحـت أنظـار العـين السـاهرة لمحاكـم التفتيـش. لقـد وصـل الأمـر إلى حـد إجبـار كل العائـلات الموريسـكية عـلى إبقـاء لحـم الخنزيـر معلقـا في المطبـخ، بـل وقـد قامـوا حتـى بإنشـاء "شرطـة لحـم الخنزيـر" التـي كانـت تفتـش منـازل هـؤلاء عـلى فـترات منتظمـة للتأكـد مـن أنهـم كانـوا يسـتهلكونها. لكـن ورغـم ذلـك تجـرء دون كيشـوت عـلى التحـدث بتعاطـف عـن الموريسـكيين.

عندمـا خاطـب كيشـوت صديقـه سانشـو بالكلـمات الشـهيرة التاليـة: "Con la Igle-sia hemos dado, Sancho"[18]، ("مـع الكنيسـة لقـد انتهينـا، يـا سانشـو") ابتكـر تعبـيرا صـار بمثابـة مثـل في اللغـة الإسـبانية. وبينـما كان دون كيشـوت مسـتعدا بشـكل كامـل لمواجهـة طواحـين الهـواء، فقـد كان عليـه أن يفكـر مليـا عندمـا يتعلـق الأمـر بالكنيسـة. بطبيعـة الحال، ففـي عـصر كانـت فيـه محاكـم التفتيـش تحـرق الرجـال والنسـاء لأبسـط الجرائـم، كان عـلى سرفانتـس أن يسـير بحـذر، وكان حريصـا عـلى حمايـة نفسـه بتأكيـد إيمانـه. لكنـه كان مـن الواضـح جـدا أن موقفـه مـن المؤسسـة الدينيـة عـلى الأقـل، كان نقديـا، إن لم يكـن معاديـا بشـكل صريـح. إذا قـرأ المـرء روايـة دون كيشـوت بتمعـن، سـيتضح لـه عـلى الفـور أن نقـد الكنيسـة يمـر كخيـط أحمـر في الكتـاب بأكملـه. ففـي الفصـل الخامـس، عـلى سـبيل المثـال، تقـول ابنـة أخ كيشـوت:

«في الواقـع، أنـا هـي السـبب في كل هـذا الأذى، لأني لم أعلمـك في الوقـت المناسـب بهذيـان عمـي، لكنـتَ قـد عالجتَـه قبـل فـوات الأوان، وأحرقـتَ كل تلـك الكتـب المحرمـة، لأن الكثـير منهـا يسـتحق أن يحـرق مثلـما أحـرق عتـاة الزنادقـة»[19].

وقـد تـم تنفيـذ ذلـك عـلى النحـو الواجـب بعـد فصلـين، عندمـا تـم إرسـال جميـع كتـب دون كيشـوت إلى النـيران:

«في تلـك الليلـة أحرقـت مدبـرة المنـزل جميـع الكتـب، ليـس فقـط تلـك الموجـودة في الفنـاء، بـل جميـع الكتـب التـي كانـت موجـودة في المنـزل؛ والعديـد مـن تلـك الكتـب التـي عانـت مـن الكارثـة العامـة، كانـت تسـتحق أن تُحفـظ في أرشـيفات أبديـة، لـولا أن مصيرهـا وتقصـير مـن تـم تكليفهـم بتفتيشـها قضيـا بخـلاف ذلـك. وهكـذا تحققـوا مـن المثـل القائـل: "غالبـا مـا يدفـع الخَيِّـر ثمـن مـا يرتكبـه الشريـر"»[20].

مـن الواضـح أن هـذه محـاكاة سـاخرة لعمليـات الإحـراق التـي كانـت محاكـم التفتيـش تنفذهـا، والتـي مـلأت السـاحات المركزيـة للمـدن الإسـبانية برائحـة اللحـم المحـترق. في تلـك الاحتفـالات الوحشـية كان الأبريـاء، في كثـير مـن الأحيـان، هـم الذيـن يعانـون، بينـما كان المذنبـون هـم مـن يـشرف عـلى الاحتفـال. وفي مناسـبات أخـرى أيضـا يتحـدث دون كيشـوت عـن الكنيسـة بـازدراء كبـير. كان هـذا موقفـا شـجاعا للغايـة، بـل وحتـى متهـورا، في ذلـك العـصر الـذي كانـت فيـه محاكـم التفتيـش المقدسـة تمتلـك سـلطة مطلقـة عـلى حيـاة النـاس وموتهـم. في الفصـل 13، يقـول أحدهـم إن الرهبـان الكارثوسـيين (Carthusian) هـم أيضـا يعيشـون حيـاة التقشـف مثلهـم مثـل الفرسـان الجوالـين، فأجابـه دون كيشـوت: «ربمـا، قـد تكـون مهنـة الكارثـوسي متقشـفة، لكننـي أكاد أشـك فيـما إذا كانـت مهنتهـم مفيـدة للعـالم مثـل مهنتنـا»[21].

روح متمردة

إذا قـام المـرء بقـراءة مـا وراء السـطور يمكنـه أن يكتشـف عنـاصر النقـد الاجتماعـي في كل صفحـة مـن صفحـات الروايـة تقريبـا. بـل إن روح التمـرد حـاضرة منـذ البدايـة، حيـث نقـرأ في مقدمـة المؤلـف مـا يـلي:

«[...] أنـت لسـت قريبـا لـه ولا صديقـه، وروحـك ملـك لـك وإرادتـك حـرة مثلـك مثـل أي إنسـان آخـر، أيـا كان، وأنـت سـيد في بيتـك كسـيادة الملـك عـلى مـا يجبيـه مـن ضرائـب، وأنـت تعـرف المثـل الشـائع الـذي يقـول: "تحـت عبـاءتي يمكننـي أن أقتـل حتـى الملـك"، كل هـذا يعفيـك مـن كل احـترام والتـزام، ويمكنـك أن تقـول عـن هـذه القصـة مـا تريـده دون الخـوف مـن التعـرض لأي أذى جـراء أي سـوء تقولـه عنهـا، أو الحصـول عـلى أي مكافأة مقابـل أي خـير قـد تقولـه عنهـا»[22].

ودون كيشـوت هـو أيضـا شـيوعي بالفطـرة. ففـي خطـاب ألقـاه أمـام بعـض رعـاة الماعـز المتشـككين، تحـدث عـن عـصر ذهبـي قديـم عندمـا كانـت كل الأشـياء مشـتركة:

«آه، يـا لـه مـن عـصر سـعيد، ذلـك الـذي أطلـق عليـه أسـلافنا الأوائـل اسـم العـصر الذهبـي! ليـس لأن الذهـب، المحبـوب جـدا في عصرنـا الحديـدي هـذا، كان مـن السـهل الحصـول عليـه آنـذاك، بـل لأن هاتـين الكلمتـين القاتلتـين: "مِلـكي" و"مِلـكك"، كانتـا فروقـا غـير معروفـة للنـاس في تلـك الأوقـات السـعيدة: لأن كل الأشـياء كانـت مشـتركة في ذلـك العـصر المقـدس: لم يكـن يتوجـب عـلى الرجـال، مـن أجـل الحصـول عـلى قوتهـم، إلا أن يمـدوا أيديهـم، ويأخـذوه مـن شـجرة البلـوط السـامقة، التـي كانـت تدعوهـم بسـخاء إلى قطـف الثـمار الصحيـة اللذيـذة»[23].

إنـه يقـارن ذلـك العـصر الذهبـي، عندمـا كانـت كل الأشـياء مشـتركة، مـع العـصر الحـالي حيـث يحـدد المـال والجشـع كل جانـب مـن جوانـب الحيـاة والفكـر:

«لكـن في هـذا العـصر المنحـط، حيـث الاحتيـال وكثـير مـن العلـل تصيـب العـالم، لا يمكـن أن تكـون أي فضيلـة آمنـة، ولا يوجـد

شرف آمن؛ بينما الرغبات الوحشية، المنتشرة في قلوب الرجال، تفسد أكثر النفوس صرامة وأطهر الخلوات؛ التي، حتى ولو كانت معقدة ومجهولة مثل متاهة كريت، فهي ليست ملاذا للعفة. وهكذا اختفت البراءة البدائية، وانتشر الاضطهاد بشكل يومي، فكانت هناك ضرورة مقاومة تيار العنف: ولهذا السبب تم وضع نظام الفرسان الجوالين، للدفاع عن شرف العذارى، وحماية الأرامل، ومساعدة اليتامى، ومساعدة كل المنكوبين بشكل عام. والآن أنا نفسي أحد هؤلاء الأتباع المخلصين لهذا النظام؛ وعلى الرغم من أن جميع الناس ملزمون، بموجب قانون الطبيعة، بأن يكونوا لطفاء مع الأشخاص الذين ينتمون لهذا النظام، لكن وبما أنكم تعاملتم معي بسخاء، دون حتى أن تعرفوا أي شيء عن هذا الالتزام، فيجب أن أقدم لكم تقديري التام؛ وبالتالي أقدم لكم، في المقابل، جزيل شكري»[24].

لقد كانت ضربة بارعة من جانب سرفانتس أن يمرر ذلك النقد الاجتماعي الجريء على لسان رجل مجنون. كل الثوريين في التاريخ اعتبروا مجانين من طرف معاصريهم. بالنسبة لمعظم الناس، من المنطقي قبول الوضع القائم، وأي شخص لا يقبل بالنظام الحالي فهو غير عقلاني -مجنون- بالتأكيد.

قال هيغل: «كل ما هو واقع هو عقلاني. وكل ما هو عقلاني هو واقع». وهو الموقف الذي تم استخدامه كتبرير مطلق للوضع القائم. لكن إنجلز أوضح أنه بالنسبة لهيغل ليس كل ما هو موجود هو واقع، دون مزيد من التحديد. صفة الواقع، بالنسبة لهيغل، تخص فقط ما هو ضروري: "في سياق تطوره، يثبت الواقع أنه ضرورة".

وما هو ضروري يثبت نفسه، في آخر المطاف، على أنه عقلاني أيضا.

وغني عن القول إنه بالنسبة للماركسي كل ما هو موجود هو موجود بفعل ضرورة ما. لكن الأشياء تتغير باستمرار وتتطور وتتحول وتولد تناقضات داخلية تؤدي في النهاية إلى تدميرها. لذلك تفقد صفة الضرورة وتدخل في تناقض معها. تبدأ الأرض بالاهتزاز تحت أقدام النظام القائم. وهؤلاء

الأشخاص الذين اعتبروا أنفسهم أسمى الواقعيين، يصيرون أسوأ أنواع الطوباويين الرجعيين، في حين أن أولئك الذين كان يُنظر إليهم على أنهم حالمون ومجانين، يتحولون إلى الأشخاص العاقلين الوحيدين في عالم أصيب هو نفسه بالجنون.

خلال الفترة التاريخية التي يدخل فيها نظام اجتماعي اقتصادي متجاوز في حالة انحطاط، تفقد الأيديولوجيا والأخلاق والقيم والدين، التي كانت في السابق هي الإسمنت الذي كان يجمع المجتمع معا، تفقد قوتها الجاذبة. تصير الأفكار والقيم القديمة موضع سخرية. ويصير الأشخاص الذين يتشبثون بها مثيرين للضحك، مثل دون كيشوت نفسه. وتصبح الطبيعة التاريخية النسبية للأخلاق واضحة. ما كان سيئا يصبح جيدا، وما كان جيدا يصبح سيئا.

الانحطاط المخزي الطويل لإسبانيا

«اكتشاف أمريكا، الذي شكل في البداية سبب ثراء إسبانيا ورفعتها، صار في وقت لاحق موجها ضدها. تم تحويل طرق التجارة العظيمة من شبه الجزيرة الإيبيرية. هولندا، التي صارت غنية، انفصلت عن إسبانيا. وبعد هولندا، صعدت إنجلترا إلى مستويات عالية فوق أوروبا ولفترة طويلة. وابتداء من النصف الثاني من القرن السادس عشر كانت إسبانيا قد بدأت بالفعل في الانحطاط. ومع تدمير الأسطول العظيم (1588)، اتخذ هذا الانحطاط صبغة رسمية، إذا جاز التعبير. إن الحالة التي أطلق عليها ماركس "الانحطاط المخزي والبطيء" أناخت بثقلها على إسبانيا الإقطاعية البرجوازية»[25].

تحت تألق إنجازات إسبانيا، كانت أسس ذلك الصرح المهيب تنهار بالفعل. كان نسيج المجتمع كله فاسدا. وعلى الرغم من الحالة المالية المزرية لإسبانيا، فقد تقرر تجديد الحرب مع هولندا. ومن أجل تكوين جيش من المرتزقة في إسبانيا وألمانيا، أصدرت الدولة عملات معدنية مزيفة على شكل "بليون" ("vellón")، وهي الخطوة التي أدت بشكل حتمي إلى انفجار التضخم. أما الانهيار النهائي فقد جاء ببطء وبشكل مخز.

لم يصب الانحطاط قيمة العملة وحدها. فقد كان النظام الملكي فاسدا تماما ولم يكن البلاط سوى بؤرة للفجور والرذيلة. في عهد فيليب الرابع، وصل الانحطاط الأخلاقي للبلاط الإسباني أقصى الدرجات. والملك نفسه، عندما لم يكن مشغولا بالصيد في إيل باردو (El Pardo)، وإيل إيسكوريال (El Escorial) وأرانخويث (Aranjuez)، كان يقضي وقته في العديد من العلاقات الغرامية، وبالتالي كان محاطا بجيش هائل من العشيقات والعشاق والأبناء غير الشرعيين.

كان أبا للعديد من الأبناء غير الشرعيين، وأشهرهم دون خوان خوسيه النمساوي، ابن ممثلة كوميدية معروفة باسم لا كالديرونا. في حين أن الملكة، من جانبها، لم تكن تخفي علاقتها بحبيبها كونت فيلامديانا (Villame-diana).

كانت إسبانيا، بصفتها القوة الرائدة في الإصلاح المضاد، تنظر إلى الوراء، في محاولة لوقف تيار التاريخ. كانت تنتهج سياسة دون كيشوتية. لكنها، مثلها مثل دون كيشوت، لم تنجح في إيقاف عقارب الساعة، بل فقط حكمت على نفسها بالانحطاط والهزيمة والانحلال على جميع المستويات. لقد كانت إسبانيا بالفعل عملاقا بأقدام من طين، وكانت مغامراتها العسكرية في البلاد المنخفضة بمثابة المسمار الأخير في نعشها. سرعان ما حررت هولندا نفسها من القبضة الخانقة لإسبانيا، التي سرعان ما وجدت نفسها ضحية للعدوان العسكري الأجنبي، وتعرضت للإذلال والسحق على يد بلدان كانت في السابق أقل شأنا منها.

صارت محاكم التفتيش آنذاك قوية للغاية، وترأست عهد الإرهاب، على أساس أساليب التعذيب والحرق المعتادة. في عام 1680، كانت ساحة بلازا مايور مسرحا لاحتفالات فعل الإيمان المرعبة. رائحة اللحم المحترق سممت روح إسبانيا وشوهت عقلها. اخترقت الظلامية أعلى مستويات الدولة. وقد انعكس هذا المزاج السائد في فن تلك الفترة، وهو فن، مع استثناءات قليلة جديرة بالتنويه، كان مشبعا بروح التعصب المتطرف المجنون.

إن الانحطاط الذي شهدته إسبانيا هو دليل يوضح كيف يمكن لمجتمع عاجز عن تطوير قوى الإنتاج أن يقع ضحية لنجاحه الخاص. "الكبرياء يأتي قبل السقوط"، كما يخبرنا المثل. وتلك الغطرسة الإمبراطورية الإسبانية لها نظير حديث في غطرسة الولايات المتحدة الأمريكية اليوم. فمثلما كانت إسبانيا أقوى وأغنى بلد على وجه الأرض في القرن السادس عشر، فإن الولايات المتحدة هي اليوم كذلك. ومثلما كانت إسبانيا معقل الثورة المضادة في العالم آنذاك، كذلك الولايات المتحدة الآن. ومثلما بالغت إسبانيا في مغامراتها العسكرية الأجنبية التي استنزفت قوتها وجففت خزائنها، فإن الولايات المتحدة تتخطى حدودها على الصعيد العالمي.

إن أوجه الشبه واضحة وتمتد إلى مجال الأيديولوجيا والدين. جورج دبليو بوش متعصب ديني ضيق الأفق، مثله تماما مثل فيليب الثاني، وهو مصمم تماما على فرض الهيمنة المطلقة على العالم. هذه التشابهات ليست من قبيل الصدفة. نحن نعيش في فترة تغير تاريخي عظيم، فترة انتقالية مماثلة لتلك التي كانت في القرن السادس عشر. لكن بينما كان العالم في ذلك الوقت يشهد انهيار الإقطاع وحركة لا تقاوم في اتجاه الرأسمالية، فإننا نشهد الآن آلام احتضار الرأسمالية وحركة لا تقاوم بنفس القدر في اتجاه مجتمع جديد نسميه الاشتراكية.

أولئك الذين لديهم الشجاعة ليقولوا الحقيقة يوصفون بالطوباويين والحالمين والمجانين. نحن نشارك هذا الشرف مع دون كيشوت. نجد أنفسنا غير متلائمين مع عالم الرأسمالية مثلنا مثل سلفنا اللامع. لكننا، على عكسه، لا نسعى إلى إعادة عقارب الساعة إلى الوراء أو العودة إلى عصر ذهبي لم يكن موجودا من قبل. بل على العكس من ذلك، نحن نرغب بشدة في المضي قدما إلى مرحلة جديدة للتطور البشري أسمى نوعيا.

لسنا بحاجة للأحلام والأوهام، بل نفضل أن نبقي أقدامنا ثابتة على الأرض. وبهذا المعنى نحن نتبع تقليد ذلك البروليتاري الطيب القلب والمنطقي: سانشو بانزا. لكننا نتشارك مع فارس لامانشا كراهية شرسة ضد الظلم بجميع أشكاله. نحن نتشارك معه قدرته على الارتقاء فوق الأخلاق البرجوازية الضيقة الحقيرة، ونتشارك معه في التطلع إلى عالم أفضل من العالم الذي نعيش فيه، والشجاعة للنضال من أجل تغييره.

مراجع وهوامش:

1: Marx and Engels, The Communist Manifesto, Chapter 1.

2: Trotsky, The Spanish Revolution

3 Marx and Engels, The Communist Manifesto, Chapter 1

4: The Great Armada: الاسم الذي أطلق على الأسطول الحربي الإسباني في تلك الفترة. المترجم.

5: K Marx, Capital, Vol. 1, Progress Publishers, 1971, pg 510.

6: W H Prescott, History of the Reign of Ferdinand and Isabella, George Allen & Unwin, 1962, p. 740

7: بالإسبانية في النص الأصلي: (El Siglo de Oro) -المترجم-

8: Marx, Capital, Vol. 1, Chapter 28.

9: Lafargue, Reminiscences of Marx

10: K Marx, Capital, Vol. 1, Progress Publishers, 1971, pg 59

11: Cervantes, Don Quixote, Hogarth Press, 1900, pg 2

12: ibid., pg 325.

13: ibid., pg 13.

14: ibid., pg 41.

15: ibid., pg 61.

16: ibid., pg 64.

17: احتفال فعل الإيمان ("auto da fé") هو احتفال "التكفير عن الذنوب"، كانت تنظمه محاكم التفتيش في تلك الفترة. -المترجم-

18: "Con la Iglesia hemos dado, Sancho"، عبارة مراوغة تعني حرفيا: "لقد وصلنا إلى الكنيسة، يا سانشو"، لكن لديها المعنى الضمني المذكور في المتن.

19: ibid., pg 29.

20: ibid., pg 39

21: ibid., pg 76

22: Cervantes, Don Quixote, Norton, 1981, pg 9.

23: Cervantes, Don Quixote, Hogarth Press, 1900, pg 64

24: ibid., pg 66.

25: Trotsky, The Spanish Revolution

التيار الماركسي الأممي

SCAN ME